أخبار اليوم
قطاع الثقافة

الأعمال الكاملة للدكتور مصطفى محمود

مكتبتنا
كنوز من المعرفة

الغابة

دكتور مصطفى محمود

Ahmed Mady
http://www.maktbtna2211.com/

[redacted]

رئيس مجلس الإدارة :

د. محمد عهدى فضلى

[redacted]

الدكتور مصطفى محمود

الغـــابة

هذا الكتاب

حـينما بدأت أكـتب عن رحلتى فى الغـابة كـان فى ذهنى أن أروى ما شاهدت من انـطباعات فى سياق فنـى قصصى ... وفى الجزء الأول من الكتاب كـان هذا هو الطابع الملحوظ فى الأسلوب .. ولكن الموضـوع مـا لبث أن تحول بين يدى بـعد ذلك إلى دراسـة علميـة .. أتقصى فيهـا المراجع وأبحث فى بطون الكتب .. وأحاول أن أجمع إلى شـهادة الرؤية وشهادة الحـواس .. جهود الباحـثين الذين عاشوا أعمارهم فى هذه المجاهل البعيدة .

وكانت طبيعة الموضوع هى التى فرضت علىّ هذا الأسلوب .. فـقد انفـتحت الغـابة أمـام عينى على عـالم هائل .. رهيب .. تيـه مجهول .. جديد كل الجدة .

وكان فضـول المعرفة .. وعطش العلم .. والرغـبة فى الكشف عن هذا التيه والتعرف عليه .. أقوى من الرغبة فى التجمل الفنى..

وكان الاكتفاء باللمحة العابرة التى تمنحها لى سياحتى تقصيراً لا يليق بجلال الموضوع الذى أتناوله .

كنت تواقاً إلى المعرفة .. وكنت أشعر أن قارئى أكثر منى رغبة فى التعرف على هذه المجاهل .. منه فى قضاء لحظة استرخاء لذيذة بين انطباعات فنية ناقصة .. ولهذا فضلت أن يكون كتابى دعوة إلى معرفة وعلم أكثر منه دعوة إلى متعة فقط .

مصطفى محمود

الطريق إلى الغابة

المدينة شىء خانق لزج..

البيوت الضيقة كالدكاكين.. والناس المتزاحمون فى طوابير يتهامسون فى ريبة ويتبادلون الخوف ويتناقلون الأكاذيب ويتعاطون الأقراص المنومة ولا يعرفون للنوم طعماً.. الأشجار الحليقة.. الوجوه التى غطتها المساحيق.. الأظافر التى كساها الطلاء. الشفاه التى احتجبت خلف بسمات باردة تقليدية لا تدل على شىء.. اللغة التى أصبحت رخيصة مهلهلة مبتذلة لكثرة ما دخلها من النفاق والتظرف والصنعة.. الصداقة التى أصبحت حرفة... العاطفة التى تحولت إلى طريقة للوصول..

نهازو الفرص الذين انتشروا فى كل مكان يطنون كالذباب. البراءة التى ماتت.

المرض المزمن الذى أصبح له ألف اسم واسم.. القرحة.. القولون.. الأملاح.. السكر.. الضغط.. الكبد.. الذبحة.. الأرق.. القلق.. وهو مرض واحد اسمه الحقيقى.. المدينة..

كانت هذه الأفكار تراودنى وأنا على ارتفاع عشرة آلاف قدم طائراً إلى تنجانيقا.. إلى أفريقيا السوداء..

كم بدت لى بيضاء فى تلك اللحظة.. بيضاء القلب.

كنت أشعر أنى مريض بداء مزمن اسمه «المدينة»... داء عضال.. إدمان لا شفاء منه على اصطناع كل شىء.. اصطناع الكلام.. اصطناع السلوك.. اصطناع التهذيب.

وكان أملى الوحيد فى الشفاء.. هو الغابة.. أرتمى فى حضنها... ولا أعود أصطنع شيئاً.. لا أتكلم الكلمات المهذبة المنمقة التى اعتدتها فى المدن.. ولا أحلق ذقنى.. ولا أتكلف الأدب.. وإنما أدع ذلك الريفى الخشن الذى يسكننى يتكلم على سجيته كما يفعل وحش الغاب حينما يعوى فى الصباح دون أن يبحث لعوائه عن ديباجة..

يا لها من حرية..

ونظرت من فوق.. إلى المدن التى تضاءلت تحت قدمى.. كصفوف من العلب الصفيح.. وشعرت بنشوة تغمرنى والطائرة تقفز عبر الضباب إلى ذلك المارد الأسود.. وكأنى على ميعاد مع حبيبة تدلهت بها حباً..

وشملتنى رجفة.. وأنا أسمع الطيار يقول..

— نحن الآن فوق أديس أبابا.. باقى ساعتان على دار السلام.. ونظرت من النافذة إلى سلسلة الجبال الكالحة المغطاة هنا وهناك بمفارش من القطيفة..

هكذا تبدو الغابة من فوق... مجرد وبر أخضر كوبر القطيفة يكسو الجبل..

وسرحت..

أى حياة تموج فى داخل هذا الوبر الذى يبدو ساكناً لا يختلج.

أى صراع دامي يجرى فى هذا الدغل الأشهب الذى يبدو كقطعة من القماش الموهير.

وعادت الطائرة فانتزعتنى من خيالاتى لتلقى بى فى سحابة كثيفة من الضباب.. وغاب بصرى فى غمرة من القطن المندوف.. لا يظهر منه أرض أو سماء..

وارتفع صوت الطيار مرة أخرى..

– نحن الآن فوق المحيط الهندى.. على خط الاستواء.. ودرجة الحرارة ٣٠ درجة.. والضغط معتدل.. وظروف الطيران ملائمة.

ونظرت إلى المحيط.. كان يبدو كصفحة مرآة مصقولة.. وكانت الأمواج العالية الهائلة تبدو كنغبشة دجاج على سطحه.. امتداد أزرق فى كل اتجاه.. لا شطآن.. لا أول.. لا آخر.. منظر أصلع لا يتغير.. لون أزرق دسم ولكن سادة.. ليس فيه أى نقش..

وبدأت أشعر بالبلادة.. والثقل.. والملل.. وخيل إلىّ أن الطائرة وقفت تماماً..

ولا أدرى كم من الوقت مر على هذا الركود.. ولكنى تنبهت إلى أحشائى تهبط.. والطائرة تهبط مسرعة لتستقر وادعة فى مطار دار السلام..

وأطلت وجوه سوداء باسمة تلبس الطرابيش.. وسمعت كلمة.. « كريبو مرحب ».. تتردد باللغة الوطنية لأهل البلاد..

وعرفت بعد هذا أن اللغة « السواهيلى » أو السواحلى لأهالى تنجانيقا معظم ألفاظها عربية.. ودار السلام نفسها اسم عربى أطلقه العرب على هذا الجزء من الساحل حينما كان بالنسبة للسفن العربية التى كانت تحمل التوابل عبر المحيط الهندى ملاذ أمان ودار سلام من العواصف البحرية الكاسحة..

وأغلب أسماء السكان فى تنجانيقا أسماء عربية.. ومعظمهم مسلمون ومعظم الكلمات مألوفة للأذن.. فهم يسمون الصحون هناك صحانى.. والقهوة كاهاوا.. والماء ماجى.. والسمك سماكى.. والكبريت كبريتى.. والسفر سفارى.

وكلمة سفارى لم تدخل اللغة « السواهلى » وحدها. ولكنها دخلت اللغة الإنجليزية أيضاً..

لهذه الدرجة فرضت الشخصية العربية نفسها.. وتركت آثارها..

ولكن يبدو أن هذه الآثار لم تكن أكثر من آثار لغوية.. لأن كل شىء فى تنجانيقا ما عدا الأسماء والكلمات.. إنجليزى..

المبانى فى دار السلام إنجليزية.. والمرور إنجليزى « من على الشمال » والفنادق إنجليزية.. والبنوك إنجليزية.. والسلطة إنجليزية.

والهنود سلطة ثانية فى تنجانيقا.. سلطة من نوع غير مباشر فكل التجارة والثروة الفعلية فى يد الهنود.. موظفو المكاتب وأصحاب المحلات وأصحاب البارات هنود.. والأطباء هنود. وأصحاب الشركات هنود.. حتى مكاتب التاكسى يديرها هنود..

ومكاتب البريد يديرها هنود.. ومكاتب التلغراف يديرها هنود..

وأهالى البلاد الأصليون يشتغلون بأفقر المهن.. ومعظمهم يسكنون البنجالو والأكواخ.. وهم بسطاء طيبون يحبون الرقص والموسيقى ويغرقون همومهم فى «الموناتسى».. نوع من الخمر مصنوع من لبن جوز الهند..

والجذام والملاريا والحمى الصفراء ومرض الفيل والجدرى ومرض النوم تحصد المواطنين من الأهالى الأصليين الذين يعيشون على أطراف المدينة..

وذبابة تسى تسى التى تنقل مرض النوم.. والبعوض الناقل للملاريا والحمى الصفراء ومرض الفيل موجود بكثرة فى الغابة..

ولكن دار السلام خالية من الأوبئة تقريباً.. والإنجليز تمكنوا من القضاء على ذباب تسى تسى هناك..

والمدينة نظيفة جداً.. ومبنية على طراز عصرى..

والجو حار رطب لكن محتمل..

أشبه بصيف الإسكندرية الخانق فى أغسطس..

وحكاية الجو الاستوائى القاتل.. والرجل الأبيض الذى يكافح ويستشهد من أجل نشر النور والعرفان خرافة روجتها السينما.. ولازالت تروجها.. والحقيقة أن الرجل الأبيض يعيش فى خط الاستواء منعماً بالهواء المكيف وبالعربات الفاخرة والطائرات الخاصة.

وهم هناك يحكون حكاية ويليام سن الذى نزل تنجانيقا من

ستين عامـاً.. ونصب سورا من الأسلاك الشائكة حول خـمسمائة ميل من الأرض كتب عليها اسمه..

وبدأ ينقب فيها.. فعثر بالصدفة على منجم للماس..

وأصبح ويليام سن بين يوم وليلة واحداً من أغنى أغنياء العالم..

وكان يهدى عقود الماس للملكة مارجريت بنصف مليون جنيه..

وبلغت الضرائب التى فرضت عليه فى العـهد العـمالى ٨٠٪.. ومع ذلك ظل مليونيراً.. وظل واحـداً من أغنى أغنياء العالم.. وفى خاتمة حياته أصيب بسرطان اللسان..

وظل يتجول فى بلدان العالم يستشـير أكبر الأطباء والجراحين دون أمل..

ومات بعد سنتين من المرض وحوله ١٦ طبيـبا عالميا.. فى فيلا بنيروبى.

وهم يروون الحكاية ويمصمصون شفاههم فى عبرة قائلين..

وأين ذهب ويليام سن بكل مـلايينه !!.. ولا شك أن حكاية المواطن التنجانيقى الفقير الذى تلتهـمه الحمى الصفراء وتسلمه إلى القبر.. بلا عزاء.. وبلا مـلايين.. وبلا اسم يتناقله الرواة من بعـده.. تلك الحكاية التى تحدث كل يوم.. أكثر إثارة.. وأكثر عبرة.. من حكاية المدعو ويليام سن الذى عاش ومات بعد أن استمتع بكل إمكانياته.

الأحد ٣ فبراير :

كان الأوتيل يتحدث عن السرقة العجيبة التى حدثت فى الليل..

قالت الزوجـة إنها شاهدت اللص يقـفز من النافذة إلى الغـرفة

وهو عار تماماً لا يستر جسمه الأسود شيء.. وكان جسمه يلمع لمعاناً غريباً كأنه مدهون بالشحم أو الزيت.. وفي يده سكين طويلة مشرعة..

وفى لمح البصر كان يخطف سروالا من الشماعة ويلقى به من النافذة إلى شخص آخر ينتظره..

وفى اللحظة التى استطاعت أن تستجمع شجاعتها وتلكز زوجها النائم إلى جوارها ويهب الاثنان ليلحقا باللص كان اللص قد قفز من النافذة إلى الشارع..

كل ما استطاع أن يشهد به الرجل إنه أمسك بيد اللص فانزلقت من قبضته كأنها ذراع من هلام وأن يده تلوثت بمادة دهنية.

وخرجت تنجانيقا ستاندارد بأعمدة طويلة مفصلة عن عصابات السود التى تهاجم المنازل.. وقطاع الطرق الذين يسلبون المارة نقودهم آخر الليل..

وهز سكان الأوتيل رءوسهم فهذه أشياء عادية تحدث كل يوم فى دار السلام..

وكان الحديث الذى يدور فى قاعة الطعام صباح ذلك اليوم.. كله عن الحادث..

المرأة الحمراء الوجه التى تشرب القهوة فى الركن كانت تقول لزوجها فى عصبية.

– هؤلاء الزنوج.. إنهم منتشرون فى كل مكان.. إنهم ينظرون

إليك كلما أخرجت قطعة من النقود.. وكأنهم سيأكلونك..

وزوجها يهز ساقيه وينقر على المائدة ولا يجيب فتقول بعصبية أكثر..

– هذا البلد .. لم يعد أحد يستطيع أن يمشى فيه آمناً . فيبتسم الزوج معلقاً .

– هذا أمتع ما فى هذه الرحلات.. أن يعيش الواحد فى خطر.. لا تنسى يا حبيبتى أنك فى أفريقيا..

فتقول وهى تنفخ..

– أوف.. هذه همجية.. هذه بربرية... إننا لم نقطع كل هذه الأميال لتسرق نقودنا.. هذه فوضى.. ألا يوجد بوليس.. ألا توجد نيابة..

واثنان من الأمريكان يبدو أنهما من رجال الأعمال.. يدخنان السيجار.. ويقول أحدهما ضاحكاً إنه يحسب حساباً لمثل هذه المفاجآت دائماً.. وينام ونقوده فى جيبه.

ورجل بلجيكى قادم من الكونغو يتلفت حوله فى قلق.. ويقوم ويقعد.. ويذهب إلى التليفون.. ويسأل عن مدير الأوتيل..

ويهتف فى اضطراب..

– هذا فظيع.. لابد من حراسة.. لا أدرى ماذا أفعل لو أنى فقدت نقودى فى هذا البلد الغريب..

وسائح إنجليزى له ذقن كثة.. لا يفتأ يتخلل ذقنه بأصابعه.. ويقول فى اشمئزاز.

- هذا اللص يجب أن يشنق.. هذه فضيحة.

وحينما ذهبت لأدفع حساب الأوتيل كان المدير الهندى الوسيم الحليق الذى يلبس بدلة ترجال.. يتحدث فى ثورة عن اللص.. وعن زمام الأمن الذى أفلت من رجال البوليس.. وعن الإهمال.. والفوضى.. والإرهاب.

وقدم لى فاتورة طويلة عريضة.. لاحظت أن فيها مائة شلن زيادة ولما حاولت أن أستفسره.. قال فى أدب أنى تأخرت فى إخلاء الغرفة نصف ساعة.. وأن الليلة قيدت على حسابى.

أى ليلة.. إننا مازلنا فى أول النهار.. وهذه الوجبات الثلاث مقيدة على حسابى أيضاً !؟.. غير معقول. إنى لم آكل منها لقمة.. كيف أدفع ثمن وجبات لم أذقها.

وعاد المدير يقول فى أدب جم..

- هذا هو النظام.. إن الخدمة هنا كاملة.. وأجر الغرفة يحسب شاملاً المبيت والطعام..

- ولكنى لم أبت الليلة.. ولم أتناول طعاماً..

ولم يشفع لى عنده شفاعة..

وأصر على أن يأخذ آخر شلن إنجليزى فى جيبى..

وحينما وضع النقود فى خزينته.. وقام يصافحنى.. عاد يتأسف بشدة ويعتذر عما حدث بالأمس.. وما فعله ذلك اللص.. المجرم.. الأثيم.. الوغد.. الـ.. الـ..

أى لص يقصد ؟!

سارق السراويل الغلبان الذى دهن جسمه بالسمن وتسلق النافذة ليخطف جاكتة ؟!

جاكتة ؟!

وماذا يفعل كل هؤلاء اللصوص البيض الذين تسلقوا البلد من البر والبحر والجو وهجموا عليها من كل النوافذ..

ماذا يفعلون طول اليوم.

وكل يوم..

الاثنين ٤ فبراير :

كل شىء فى دار السلام يحرق الأعصاب.. التجارة فى كل شبر وفى كل خطوة.. وكل الناس فى دار السلام تجار بشدة ليس لديهم وقت لصداقة أو عاطفة.. جرابيع.. وأفاقون.. ومغامرون.. وافدون من كل مكان فى الأرض جرياً راء الصفقات.. الثروات.. لا أحد يتحرك لوجه الله.. كل واحد يتحرك لمنفعة.. أو مشروع.. حتى المبشر خادم الله يخدم أشياء أخرى لا علاقة لها بالله.

وشعرت أنى أختنق.. وأنى لو بقيت أكثر من ذلك سوف أنضم إلى صاحبى الأسود الذى يخطف الجاكتات..

وركبت أول طائرة مغادرة دار السلام.

وبعد ساعة وعشرين دقيقة كنت أنزل فى موشى..

وأخذت عربة من المطار لأصعد فى ممرات جبلية..

وكانت عيناى تتلفتان فى ذهول.

الطريق كله غابات جبلية شجراء تتخللها مساقط مياه..

وحيضان زهور.. وجداول عذبة.. وهضاب حمراء نحاسية اللون.. وتعاريش خضر.. واستراحات هنا وهناك.. وفنادق غاية فى الذوق والجمال والنظافة.. والجو بارد فى جفاف واعتدال.. والنسمات تقرص الخدود وتدغدغها فى رفق منعش..

مكان أشبه بسويسرا..

الأشجار اقتلعت وشقت فى وسطها الطرق بالأسفلت.. وبنيت القصور والشاليهات والفيلات.

جبل كليمنجارو.. شاهق عملاق.. يخرق السحاب.. تلمع رأسه الصلعاء فى الشمس.. تغطيها رقائق الثلج كمنديل أبيض مطرز بالدانتيل..

وتوقفت العربة عند مشرب أفريقى مبنى بالبامبو.. وكان الوطنيون السكارى يجلسون على دكك خشبية ويتناولون البومبى (البوظة المصنوعة من الموز المخمر) بأكواب خشبية لها أيد طويلة كالملاعق.. ورائحة المكان كرائحة بوظة الحللى عندنا..

وخلف المشرب كانت تصطف البراميل التى يخمر فيها الموز المهروس.. وكان الفقر يبدو فى ملابس الوطنيين.. وفى ملابس الساقى والساقية.. وفى البراميل المكشوفة التى يتساقط فيها الذباب..

وعلى بعد أمتار من المشرب كانت السوق الوطنية منصوبة.. وأسباط الموز معروضة للبيع على الأرض.. وثمار الأناناس.. والجبن.. والزبد.. وجرار اللبن.. وسلال البيض.. مصفوفة على ملاءة مفروشة..

وفى مكان آخر صحون وملاعق خشبية ودمى وتمائم لطرد العين.. وعقود من الخرز وغوايش وخلقان وأقمشة ملونة..

وكانت جلود الأسود والنمور منشورة لتجف على الأشجار..

وكانت أغلب البائعات الواقفات من النساء المتقدمات فى السن..

وإلى جوار السوق كانت تبدو مشارف الفندق الفخم بحدائقه الغناء وفيلاته الرشيقة.. ووابور الماء والكهرباء الخاص به.. وغلايات الماء الساخن..

وعلى الأشجار كان اسم الفندق منحوتاً فى حروف إنجليزية كبيرة.. مرة أخرى ذلك التناقض الحاد الذى يستفز الأعصاب..

وكان « لازارو » السائق يحدثنى طول الوقت فى إنجليزيته المكسرة.

– إن مشكلتنا يا سيدى.. أن الأرض كلها فى يد الإنجليز.. والتجارة كلها فى أيدى الهنود.. ونحن ضائعون بين الاثنين.. إنك تتفرج الآن مبهوتاً على جمال بلادنا. وروعة بلادنا.. ونحن مثلك نتفرج.. لا نملك أكثر من أن نتفرج.. كل شىء فى أيدى الآخرين.. ونحن ننظر ونتحسر.. ولو أنك ذهبت إلى نيروبى لرأيت ما هو أجمل. إنهم يبنون هناك العمارات من عشرين دوراً..

وحينما وصلت إلى الفندق.. كنت مازلت أفكر فى كلام « لازارو » وأتحسر أنا الآخر.

السبت ٩ فبراير :

فى الأيام القليلة التى قضيتها متنقلاً من دار السلام إلى موشى..

رأيت الجبل والوادى والمراعى الاستوائية الفسيحة والمدينة..

والمدينة فى قمتها وجدتها فى نيروبى..

ونيروبى مدينة كل شىء فيها مغسول مكنوس مصقول متألق.. وهى مخططة بالقلم والمسطرة على أحدث النظم العصرية.. الشوارع واسعة عريضة.. والميادين فسيحة.. وفى حى الموز كل فيلا حولها فدان من الحدائق.. والإنجليز لهم سرايات كسرايات عابدين والمنتزة.. وفى كل سراية حمام سباحة.. وحديقة حيوان وسينما.. وأكشاك من البامبو فوق فروع الشجر.. للاسترخاء والسرحان. ثراء فاجر يرهق الأعصاب..

السيارات تزحم الشوارع وتزيد على عشرين ألف سيارة..

الجراجات متعددة الأدوار كما فى أمريكا لتستوعب هذا العدد الهائل من العربات..

ودور سينما فى الخلاء تدخلها أنت وسيارتك..

وكل العمارات من طراز حديث جداً.. مبنية بالبلاستيك والخشب الماهوجونى.. والحديد.. والمسلح..

وفى المدينة كنائس ومساجد ومعابد للهنود السيخ.. وملاهى وكباريهات.. ومراقص ونوادى ليلية.. وبنات شقراوات وسمراوات من كل مكان فى العالم.. واليهود منتشرون فى كل شبر.. فى البلد..

ومعظم البضائع عليها نجمة إسرائيل.. والبرتقال اليفاوى والبطيخ والخوخ يتدفق من تل أبيب إلى نيروبى كل يوم..

وفى كينيا ٦٠ ألف إنجليزى وتسعة ملايين من الوطنيين..

والوطنيون الزنوج من قبائل الماساى.. والماو ماو.. يعيشون على أطراف المدن وفى الجبال.. فى أكواخ..

وفى تجوالى بين دار السلام.. وموشى.. ونيروبى.. لم أجد الغابة.. وجدت التمدن الفاجر الباهر.. ولم أجد الغابة..

لم أر الغابة الاستوائية الحقيقية إلا حينما ذهبت إلى فوهة بركان جرونجورو..

والطريق إلى جرونجورو طريق شاق طويل.. وبأحسن وأسرع طرق المواصلات البرية يحتاج المسافر إلى ١٤ ساعة متواصلة من السفر للذهاب إلى جرونجورو والإياب منها إلى موشى حيث يقطع مسافة تقرب من المسافة بين القاهرة وأسوان.

وقالوا لى فى ذلك اليوم إن جرونجورو ترتفع تسعة آلاف قدم عن مستوى البحر.. وإنها باردة.. ولابد أن تأخذ معك ملابس ثقيلة وأخذت معى ما يلزم من الصوف..

وبعد خمس ساعات فى طريق مستوى مُعَبَّد بدأت أصعد الجبل فى عربة قوية من نوع الجيب..

وكان الطريق خشناً والعربة تترنح..

وكنت أنتظر بين وقت وآخر لأجد نفسى على حافة جرف ينحدر إلى مهاوى لا آخر لها..

وكانت الخضرة تزداد تكاثفاً كلما أمعنت العربة صعوداً فى الجبل.

وبعد ساعات من الخوف والتوتر توقفت العربة عند محطة فى منتصف الطريق هى « ليك مانيارا »..

وليك مانيارا هى بحيرة عذبة يحتضنها الجبل ويقع على ضفتها فندق جميل ونظيف مبنى بالبامبو.. وفيه حمام سباحة وسينما وبار وغرفة طعام فاخرة وغرف نوم بالماء الساخن والبارد..

وقضيت الليلة فى فندق ليك مانيارا أستمع إلى حديث خبير الحيوانات الأمريكى الذى يشرف على الغابة..

كان يتحدث عن حكمة الحيوان وعن النظام الدقيق السامى الذى يسود الطبيعة الحية..

قال لى إنهم فطنوا منذ مدة إلى تكاثر التماسيح فى إحدى المناطق الاستوائية فأباحوا صيدها للحد من تكاثرها الهائل الذى أصبح يهدد بقية الحيوانات البرمائية..

وأقبل الصيادون يتنافسون فى القضاء على التماسيح.. وسلخها.. وبيع جلودها..

وكانت النتيجة أن الوطنيين لم يجدوا غذاءهم الطبيعى من سمك التيلابيا فى ذلك العام.. انقرض التيلابيا من البحيرات لأن سمك « القط » وهو العدو الطبيعى للتيلابيا أصبح طليقاً بعد القضاء على التماسيح..

وكانت التماسيح فى العادة تعيش على سمك « القط » وتلتهم أعداده الهائلة فتفسح السبيل للتيلابيا للتكاثر وتتوالد..

وبهذا كان يتوفر للإنسان غذاء طبيعى شهى من التيلابيا كل سنة بما يكفيه وزيادة نتيجة لهذا التنظيم الدقيق للحيوانات بين آكل ومأكول.

وفى الطبيعة دائماً ذلك المنطق والنظام الذى يتدخل الإنسان فيه فيفسده..

وحكاية سيد قشطة الذى تكاثر إلى حد بدأ يهدد معه المزروعات مثل آخر لهذا النظام الدقيق.. فحينما صدرت الأوامر بالقضاء على سيد قشطة إنقاذاً للمزروعات لم يكن أحد يتصور أن هذه الأوامر نفسها سوف تكون إيذاناً بإغراق المزروعات وتلفها.. ولكن هذا هو ما حدث..

وتفسيره بسيط.. فسيد قشطة الذى يمشى على الأرض الرخوة كما يمشى وابور الزلط كان يتكفل فى أثناء تنقلاته بشق روافد للبحيرات العذبة وفتح الأخاديد العميقة فيها..

وبذلك كانت مياه الأمطار تجد دائماً الروافد التى توزعها على الزرع وحينما كف ذلك الحيوان عن التجول.. وسقطت أعداده قتلى برصاص الإنسان.. لم تعد الأخاديد تشق وأصبحت البحيرات مسدودة وفاضت مياه الأمطار وأغرقت كل شىء..

كلام جميل..

ولكن هل هو كلام صحيح..

كنت أفكر فى هذه الفلسفة فى حكمة الطبيعة..

هل الطبيعة تدبر كل شىء كأحسن ما يكون التدبير.. وليس

فى الإمكان أبدع مما كـان.. وأى تدخل من الإنســان فى الطبـيعـة إفسـاد لحكمتها..

بهذا المعنى تكون الميكـروبات والحشرات والأمراض لهـا حكمة فهى فـى حربها علـى الإنسان تحقق توازنـاً ضرورياً فهى تـبقى على الأصلح والأقـوى وتزيل الأضـعـف.. وهى تحـد من التكاثر الإنسانى الخطر الذى ينتج عن الأفواه أكثر مما يمكن إطعامه.. ولا يجب أن نتـدخل فى هذه المذبحة الطبـيعـية.. بإعلان الحـرب على الميكروبات وشـفـاء الأمراض.. فـهـذه حمـاقة.. وإخـلال بحكمـة الطبيعة العالية..

وبهـذا المنطق يجب أن نتـرك الإنجليـز يأكلون الأفـريقـيـين.. والأمريكان يأكلون الزنوج.. فهذا ناموس رفـيع للطبيعة تحفظ به توازن الأجناس..

هل نتبع هذا المنطق الخادع أم نؤمن بأن الطبيـعة مخلوقة وأن مـثلهـا مـثل كـل المخلوقـات يمكن أن تخطـىء وخطاياها أفـدح.. وحـيـوانات الديـناصـور التى انقـرضت عن آخــرها.. ونبـاتات السرخس التى لم يـعد لها وجـود.. كلها أخطاء سجلتـها الطبيـعة على نفسها فى حفرياتها وآثارها..

والمجموعات الكوكبيـة التى تنفجر وتتبدد فى أرجاء الكون بين وقت وآخر.. دليل آخر.. على أن الطبيـعة فيها النقص الذى فى كل المخلوقات.. وأن العطب والفساد فى لبابهـا وأن الإنسان مستخلف على إصلاحها.

كنت أفكر فى هذا طوال الليل..

وفى الصباح وأنا أصعد الجبل فى العربة الجيب كنت ما زلت أفكر فى التماسيح.. وفى الموت.. وفى الإنجليز..

وكانت العربة تسير على حافة جبل شديد الارتفاع.. وكان سفح الجبل مغطى بأشجار كثيفة داكنة الخضرة.

وكان الخور السحيق الذى يهوى إليه البصر عن جانبى لا يبدو له قاع فقد سدت الأشجار الكثيفة المتشابكة قاعه.. وافترشه دغل طبيعى من نباتات وحشية ذات تلافيف متعانقة متشابكة فى معترك من الأغصان والأوراق والأزهار تتوه فيه العين فلا تتبين أرضاً.. وإنما خضرة متكاثفة على خضرة.

وشيئاً فشيئاً بدأت العربة تدخل فى منطقة جرونجورو التى تعج بالحيوانات الاستوائية.. أربعة آلاف صنف من الحيوان فى مائة ميل مربع من الأرض..

وكانت الأشجار قد بدأت تتماسك أذرعتها من فوقنا لتصنع سقفاً كثيفاً من التعاريش الخضراء تحجب الشمس أو تكاد.. ولا تدع منها إلا خيوطاً فضية تشق ظلام الدكنة الخضراء وتلمع على الأوراق كفصوص الماس.

عتمة.. وأشباح أشجار باسقة متعانقة.. وزقزقة ملايين العصافير.. وعواء آلاف الذئاب والضباع النابحة.. وخوار ثيران وأبقار وحشية وصوت أوراق تتكسر.. وأشياء تزحف.. ورياح تصفر.. ورطوبة.. وضباب ينسدل على المنظر فيزيده رهبة.. ولكنه ضباب يتحرك.. سحابة تبتلع كل شىء ثم ما تلبث أن تعصف بها الريح فتتبدد وكأنها حلم ضيف.. ثم تعود تهاويل

الأشجار للظهور.. ثم يهبط المطر رذاذاً خفيفاً هامساً.. ثم سيلا دفاقاً.. ثم طوفاناً منهمراً يقعقع على أغصان البامبو المجوفة كأنما يعزف على طبول مشدودة.. ويلمع البرق.. ويزأر الرعد.. ثم يعود الهدوء ويخف السيل ويعود رذاذاً.. ثم ينقطع وتلمع الشمس على هامات الشجر.. وتتلألأ فصوص الماس.

وتنقنق قرود لا عد لها.

إنها الغابة.

ولا يمكن أن توصف الغابة

إن أى وصف يزرى بجلالها.

إن أشجارها لا تشبه ما نرى من أشجار فى الشوارع والحدائق أشجارها سوامق.. فيها عنفوان.. وشموخ.. وزعامة.. وأزهارها محتقنة دموية.

وأوراقها ريانة.

وأمطارها عاتية مكتسحة.

وضبابها كثيف متراكم جياش.

إنها مثل نهد مراهق نزق ضيق بالثوب الذى يضمه.. نهر متمرد يكسر حواجزه وجسوره..

لا.. لا يوجد وصف يحيط بها.. فهى ليست مجرد شكل.. أو صورة تشاهد.. وإنما هى إحساس.. مذاق.. طعم.. رجفة فى القلب..

وقد شعرت بتلك الرجفة الغامضة وأنا أتنقل بين الشجر وأتسمع ذلك الخرير ينبعث من مئات الجداول والشلالات

الصغيرة التى يعربد فيها الماء والثلج منحدراً من القمم.

وكان لابد من استبدال العربة الجيب بعربة أقوى منها عند اقترابنا من فوهة بركان جرونجورو فالطريق أصبح شديد التعرج.. شديد الصعود شديد الهبوط.. وكأنها خط كاريكاتورى كثير العبث.

وفى خلال أقل من نصف ميل شعرت من كثرة الخضخضة أن أحشائى ساخت ، وأن محتويات أمعائى قد اندلقت على بعضها.

وكانت عجلات العربة تكركر كأنها تحرث التربة وتقلبها.

وكانت العربة تهبط السفح فى انحدار حاد إلى فوهة جرونجورو، وهى فوهة مساحتها حوالى مائة ميل مربع.. أشبه بميدان هائل مسور بسلسلة من الجبال ترتفع آلاف الأقدام.

والحيوانات متروكة فى هذه المساحة ترعى وتتكاثر.. وتفترس بعضها فى حياة طبيعية.. جواميس وحشية وثيران وذئاب وأبناء آوى وضباع ونمور وأسود وفيلة وقرود وغزلان ووعول وحمران مخططة ونسور وصقور.

ورعاة هائمون من قبائل الماساى والماكامبا والماو ماو يمشون أنصاف عراة ويبنون أكواخهم وسط هذا المسرح الوحشى ويسيرون آمنين كأنهم يسيرون فى بيتهم.

الماو .. ماو

حياة الغـابة على حقيقتـها وبساطتها تجـدها عند هذه القبائل البـدائيـة التى تسكن أدغـال تنجـانيـقا وكـينيـا.. عند الماســاى.. الماكـامـبـا.. والماو مـاو. وهى شىء آخـر غـيـر حـيـاة طرزان.. وروبنصن كروزو.. والسندباد..

غـابة الحقـيـقة.. غـيـر غابات الشـعـراء ، وهواة المغامـرات.. ومحترفى الصيد..

إنها بالنسبة للصياد والشاعر فـسحة يوم.. تغيير جو.. ولكنها بالنسبة لمن يعيش فـيها.. قدر.. ومصير.. ومـجموعة من المؤثرات تعـمل على تشكيل حـيـاته وتفكيـره كمـا تعـمل يد النحـات فى الصلصال..

إنها مناخ اجتماعى وليست خطوط طول وعرض..

وأقصـر طريق يوصل إلى الغابة هو الطريق الـذى يسير عـبر الخط الإنســانى.. لا الخط الحـديدى.. الخط الذى يقف بالقـبـائل والمجموعات البشرية.. لا بالمراكز.. والمحطات.. فالمحطات الحقيقية

هى الحقب التاريخية.. ونقط انتقال الإنسان من مرحلة إلى مرحلة.

البداية هنا تكون من الأول..

وسوف أبدأ من الأول.. فأخلع عنى ثوب السائح.. والتمس بعض الحقائق العلمية عن هذه القبائل.. عن أكبرها.. وأشهرها.. الماو ماو..

•••

والماو ماو ، من أكبر القبائل التي تعيش في الغابات الاستوائية.. وتعدادها حوالي مليون يعيشون منتشرين في هضبة كينيا.. واسمها الأصلي الكيكويو أو حسب اللهجة المحلية.. الجيكويو..

وهم يحكون عن نشأتها حكاية تشبه حكاية آدم..

فى البداية كانت الأرض خرابا والدنيا خاوية ثم أراد الله أن يعمر الكون لخلق جيكويو وأسكنه فى أجمل بقعة على هضبة كيرنياجا حيث تنمو أشجار التين طول العام وتكتسى الأرض بالخضرة وتتدلى عناقيد الفاكهة دانية شهية.

وبعث له بالحورية الجميلة، مومبى.. لتكون شريكة حياته فى هذه الجنة..

وتزوج جيكويو مومبى وعاش الاثنان فى سعادة وهناء.. وأنجبا تسع بنات..

وامتد بهما العمر.. وتعاقبت السنون، دون أن ينجبا ولداً واحداً..

وغـرق جيكويو فى الحـزن.. وأغلق على نفسـه باب كوخـه.. وركع لموجايى (الله فى لغة الماو ماو) ورفع ذراعـيه فى ضراعة متوسلاً إليه أن يهـبه ابـناً وانهمـرت دمـوعـه.. فاستجـاب لـه « موجـايى » وأمره بأن يذبح شـاة ويقدمهـا قرباناً يروى بدمـها شجرة التين المقدسة..

وفـعل جيكويو مـا أمره به ربه.. وحـينمـا انتهى من طقـوس القربان أمـره ربه أن ينصرف هو وبناته إلى الكـوخ ثم يعود إلى الشجرة بعد قليل فيجد أمنيته قد تحققت..

وكان « موجايى » صادقاً فى وعـده... فحينما عاد جيكويو إلى الشجرة وجد عندها تسعة من الشبان.. كل منهم مثل القمر جمالاً وبهاء..

وهكذا وجد جيكويو لبناته التسعة أزواجاً تسعة.. ورزق بذرية وفيـرة نشأت منها عـشائر الجيكويو التـسعة التى انحـدرت منها قبائل الماو ماو المعروفة الآن..

وتقول الأسـطورة إن القبـيلة كان اسـمها فى الـبداية.. قبـيلة موميى. تكريماً للأم التى حبلت فيها.

ولكن هذا التكريم كانت نتيجته طغيان نساء القبيلة.

فقد اعتبرت كل امرأة نفسها أنها الأصل فى القبيلة.. وأنها هى التى أنجبت رجالها.. وأقـامت من نفسها حاكمة. واتخـذت لنفسها عديداً من الأزواج تتحكم فيهم وتسوقهم إلى العمل فى الحقول.

وثار الرجال.. وجمعوا كلمتهم..

وذات يوم.. بينما كان النساء كلهن حبالى ضعيفات غير قادرات على الحركة.. قلب الرجال نظام الحكم واستولوا على السلطة.

ومن ذلك اليوم تغير اسم القبيلة من أبناء مومبي إلى أبناء الجيكويو ولم يبق من حكم النساء القديم إلا أثر رمزي.. هو أسماء العشائر التسعة التي ظلت تتسمى بأسماء بنات الجيكويو التسع..

وانتهى نظام تعدد الأزواج.. ليبدأ نظام تعدد الزوجات.. ولكن المرأة ظلت موضع احترام ومهابة.. والأم ظلت لها قداسة.

وإلى الآن ما زال سب الأم عند الماو ماو جريمة لا تغتفر.

والأم التي تطعن في السن عندهم تصبح لها مكانة روحية عظيمة.. وتتزعم المحافل الدينية.. والزوج يفسح الطريق لحماته عندما تمر به.. ويقف لها لتجلس.. ولا يعري جسده أمامها.. وإذا حدث والتقى بها مصادفة وهو يستحم في النهر.. فإن عليه أن يذبح لها شاة قرباناً واعتذاراً.

ولكن السلطات الفعلية انتقلت الآن كلها إلى يد الرجل..

فالأب هو في العادة سيد العائلة وحاكمها والملك الوحيد لكل ما تنتج من ثمار ومحصول.. وهو أيضاً صاحب الأرض.. وصاحب الكلمة التي لا ترد.. وكل أولاده وبناته يعاملونه في احترام وتقديس..

والابن الأكبر تخاطبه العائلة بألقاب التعظيم.. والرجل الذي لا ينجب ذرية من الأولاد يحزن كثيراً لأنه يعلم أن اسمه سوف

ينقرض.. وأن روحه لن تجد بعد موته سكناً ترفرف عليه ولا أبناء ترعاهم.. وأنها ستظل ضائعة هائمة.

وملكية الأرض كـانت فى البداية لمن يفلحـها.. ولمن يبنى فيـها كوخـه.. وكان المالك يمنح كل زوجـة يتزوجـها قطعـة من أرضه لتكون حديقتها الخاصة تزرعها وتجنى ثمارها هى وأولادها..

وكـانت الأرض تنتـقل بموت المالك إلى الأولاد الذكـور.. حـيث يتـزوج كل منهم ويوزع نصـيـبـه على زوجـاته.. وظلت الأرض تتوزعها الأيدى.. حتى ضـاقت ولم يعد هناك حل سوى أن تهاجر القبيلة باحثة عن أراض جديدة..

وهكذا انتشرت الجـيكويو جنوباً لتلتقى بقبيلة الجـومبا.. وهى قبيلة أفرادها قصار أشداء يعيشون على الصيد.. وتقول الأساطير إنهم كانوا يعـيشون تحت الأرض.. ويحفـرون بيوتهم فى خنادق ومسارب كما يفعل النمل.. وأنهم هربوا فى جوف الأرض واختفوا حينما انتشر بينهم الجيكويو.. ومن ذلك اليوم لم يظهر لهم أثر..

والحقيقة أن الجيـكويو فى انتشارهم جنوباً تزاوجوا مع أفراد القبائل التى كـانت تعيش فى تلك الأمكنة وهى قبائل تعـيش فعلاً على الصيـد.. وبهذا تلاشت شخـصية هذه القـبائل فى شـخصـية الجيكويو القوية الوافدة من الشمال ولم تختف فى شقوق الأرض كما تقول الأساطير.

وكان الجيكويو يشترون الأرض من هذه القبائل بالمقايضة فى مقابل محاصيل الحبوب والموز وقصب السكر والفاكهة.

وكانت التجارة حرة.

ولم يكن نظام العملة النقدية معروفاً حتى دخل الإنجليز فأدخلوا معهم نظام النقد وقيدوا التجارة وفرضوا على كل من يرغب في التجارة أن يستخرج رخصة.

ولم يكن تأجير الأرض للزراعة معروفاً.. وكان المتبع أن يهب المالك أرضه لمن يشاء من أصدقائه ليزرعها بلا مقابل.. أو مقابل هدية رمزية من البيرة كعنوان حب ووفاء.

وبالإضافة للأراضي الخاصة التي يملكها الأفراد. كانت هناك الأراضي العامة التي يستغلها كافة أفراد القبيلة كالمراعي.. والبحيرات.. والآبار.. وساحات الرقص والاجتماعات.. والملاعب.. والغابات التي تقطع منها الأشجار لبناء البيوت.

وعمليات بيع وشراء الأرض كانت لها طقوس ومراسيم.. فالشاري كان يتقدم عادة إلى المالك الذي يريد أن يشتري منه قطعة الأرض ومعه هدية من البيرة.. ثم يبدأ الاثنان يشربان في مرح.. ويقول الشاري : يا جاري العزيز أحب أن أعبر لك عن إعجابي بقطعة الأرض الفاتنة التي تملكها.. وأود أن تكون من نصيبي.

فيرد عليه الجار بنفس الأدب والدبلوماسية ثم يبدأ الاتفاق على الثمن وهو عادة رءوس من الأغنام. ثم يجتمع شهود من القرية ويحلف كل من الطرفين اليمين بأنه ارتضى البيع بالثمن المقدم.. وتذبح شاة وتنثر محتويات أمعائها على قطعة الأرض.. وتزرع أشجار الورد على حدودها على حين تغني الجماعة وتنشد أناشيد فيها تقديس للأرض وخصوبتها.. ويردد المالك الجديد اللعنات

على كل من تسول له نفسه باقتلاع شجراته وتخريب حدوده.

ثم تقطع من جلد الشـاة شريحـتان يلف بهم كل من الطـرفين معـصمه عـلامة لوحدة الأرض بينهـما ثم تقام وليـمة تدار فيـها أكواب البيرة.

وتوزيع العـمل فى الماو ماو يقـوم على أساس اشتـراك الرجل والمرأة فى جميع الأعمال.

النســاء يقمن بطهى الطعـام وتخمـير البـيرة وطحن الحـبوب وغـسل الأوانى وتنظيف الكـوخ وكنس الأراضـى من حـوله. وهن كلذك يجمعـن الخشب من الغابة للوقود ويبـذرن البذور ويطهرن الزرع من الأعشاب ويجمعن المحصول ويحملنه لبيعه فى السوق.. وهن يصنعن الـفـخـار.. ويغـزلن السـلال من الخـيـزران.. وهن يشـتركن فى بناء الأكـواخ فيـصنعن السقـوف من القش ويدهن الجدران بالروث وبالطين.. وينسجن الثياب من جلود الحيوان.

والثـياب الأوروبيـة بدأت تغزو الجـيكويو لكن النساء مـا زلن محافظات يفـضلن ثيابهن من الجلود ويعتـبرن الملابس الأوروبية وسيلة لسـتر شـوهات الجسم.. وكثـيراً ما تـطلب أم العروس أن يتعرى العريس أمام شهـود إذا كان يلبس الملابس الإفرنجية حتى تضمن أنه ليس مشوهاً.

والرجال بدورهن يقـومون بالأعمال الثـقيلة فيعـزقون الأرض ويدكون الطرقات ويشقون الأخوار ويقـيمون الكبارى ويحرسون الزراعة ليلاً ويشتغلون بالـصيد وبالحدادة ونحت الخشب ورعى الماشية.. وهم يذبحون الحيوانات ويسلخونها ويدبغون جلودها..

والأولاد يحلبون الماشية.

والأطفال يتدربون على العمل فى حدائق صغيرة يزرعونها فى أوقات لهوهم..

والجيكويو يزرعون الموز وقصب السكر والذرة والشعير والفول والبطاطا والبطاطس ويربون النحل ويرعون الماشية ويعتمدون على الصيد فى الحصول على طعامهم من اللحم وهم فى السوق يبادلون سلة الحبوب فى مقابل سكين صغيرة.. أو أربع سلال من الحبوب فى مقابل عنزة واحدة أو بقرة فى مقابل عشرة خراف.. وهم يعتبرون الأغنام نوعاً من العملة النقدية فيدفعونها فى الزواج ويشترون بها ما يحتاجون إليه من السهام والحراب.. ويدفعونها دية إذا حكمت محكمة القبيلة بدية.. ويقدمونها قرابين.. ويأكلون لحمها.. ويلبسون فراءها.

والأبقار عنوان ترف عند الجيكويو.. لا يذبحونها.. ولا يتخذون لحمها طعاماً..

وهم فى العادة لا يعتمدون على لبنها كثيراً فى غذائهم.. وهم يفضلون ذبح الثيران فى الولائم.. ومع هذا فالأغنياء يحرصون على اقتناء الأبقار كعنوان للترف والغنى..

والجيكويو عرفوا صناعة الحديد واستخلاصه من خاماته من عصور بعيدة.. وهم يحكون فى الأساطير أن الحيوانات كانت تذبح وتسلخ فى العصور القديمة بسكاكين خشبية.. وأنها كانت تتألم.. ولهذا قررت الفرار من الأكواخ والاحتماء بالغابة هرباً من هذه الطريقة الوحشية فى الذبح.. ومن هذا اليوم وهى تنتشر فى

الأحراش كحيوانات مفترسة بعد أن كانت حيوانات مستأنسة أليفة.

وحينما توسلوا إلى الرب أن يلهمهم طريقة فى الذبح تريح الحيوان ألهمهم استخلاص الحديد وصناعة الأسلحة..

والحدادون من الجيكويو يجلبون الخام ويطحنون ويجففونه فى الشمس ثم يشعلون الفحم ويضعون فوقه الخام ثم يغطونه بطبقة أخرى من الفحم ويرشون البيرة على الخليط وهم يرتلون طقوساً دينية وتعاويذ.. ثم ينفخون فى الكور.. ويوالون النفخ من الفجر إلى الغروب حتى يتم اختزال المعدن وينصهر ويرسب فى قاع الفرن على شكل أقراص مستديرة يطرقونها إلى صفائح يصنعون منها السكاكين ورءوس الحراب وأسنة السهام..

والماو ماو ينظرون إلى الحدادين نظرتهم إلى السحرة والكهان والحكماء ، ويعاملونهم فى رهبة وتقديس..

وفن البناء عند الماو ماو له طقوس.. وهو عندهم عمل جماعى يشترك فيه الكل بلا أجر.. فينتشرون فى الغابة رجالاً ونساء يقطعون الأشجار ويجمعون أعواد القش.. وفى اليوم المعين للبناء يقيم صاحب الكوخ وليمة لجيرانه وأصدقائه. ثم يبدأ العمل فى الصباح برش اللبن والبيرة وتلاوة الصلوات فى المكان.. ثم يقوم النسوة بكنس الأرض وتمهيدها.. ثم ترسم دائرة كبيرة ترشق فى محيطها دعامات من فروع الشجر يرسى حولها السقف ثم يبدأ النساء فى دهك الجدران بالطين والروث وتغطية السقف بأعواد القش وفى هذه الأثناء يتبادل الرجال والنساء الأغانى المرحة..

فيقول الرجال وهم يغنون:

أنتن يا نساء كسالى كالسلاحف.. لقد انتهينا من بناء هيكل الكوخ.. وأنتن تسرن في تواخ كالحبالى تجملن القش.

فيرد النساء وهن ينشدن:

وماذا يفيد هيكل من فروع الأشجار في حماية المسكن من الأمطار.. إننا نحن اللائي نجعل من هذا الكوخ كوخاً بهذا القش الجميل ننسج به البناء كما تنسج البلابل أعشاشها. أما أنتم يا رجال فلا نأخذ منكم إلا الثرثرة..

ويظل الرجال والنساء يتداولون هذا الغناء المرح حتى ينتهي البناء قبل الغروب فيعمد أكبر الموجودين إلى جرة الشراب يصب منها البيرة في قرن بقرة ثم يمسك القرن بيديه الاثنتين ويتلو صلاة لأجداده يطلب فيها البركة والسلام.. ثم يشعل اثنان من الأطفال الموقد في وسط الكوخ.. وتنتهي بذلك مراسيم البناء.

ومن تقاليد الجيكويو ألا تمارس المرأة الاتصال بزوجها جنسياً إلا في داخل كوخها.. وفي الليل..

وإذا تم الاتصال بالنهار فإنه يكون حراماً.. وإذا تم والطعام يطهى على النار فإن الطعام لا يكون صالحاً للأكل ويعتبر ملوثاً.

وطهور البنات والأولاد في الجيكويو يتم بين ١٢ و ١٦ سنة ويعتبره الجيوكويو حادثاً هاماً يقيمون له الحفلات والطقوس والمراسيم وينشدون الأناشيد الدينية ويرقصون ويغنون.

وتقوم بإجراء الطهور امرأة عجوز مختصة بهذه الجراحة:

تلبس زياً كرنفالياً مرعباً وتطلى وجهها بمادة بيضاء كالسبيداج.

ويبقى الأولاد والبنات فى كوخ العجوز مدة تتراوح بين ٧ إلى ١٢ يوماً يعالجون فيها بمنقوع أعشاب خاصة قابضة مطهرة.. حتى تلتئم جراحهم ثم ينقلون إلى بيوتهم حيث يعيشون ثلاثة شهور فى غناء ورقص ومرح..

وتقام فى ختام المدة حفلة تمثيلية يمثل فيها الأمهات أدوار الولادة والطلق ، وتذبح شاة وتصنع من أمعائها حبال يوثق بها الأولاد والبنات ، ثم تقطع رمزاً للحبل السرى الذى قطع إيذاناً بميلاد الجيل الجديد من البالغين الذى تم نضجه وميلاده.

ثم تقام حفلة راقصة يلبس فيها الأولاد لباس الحرب ويطلون أجسامهم بالطلاء الأحمر ويرقصون بالحراب. وتلبس البنات الخرز والجلود المطرزة الأنيقة ويرقصن.. وتنتهى بذلك طقوس الطهور..

ومن تقاليد الجيكويو السماح بالعلاقات الجنسية بين الأولاد والبنات بعد الطهور.. ولكنها لا تكون علاقة جنسية كاملة.. وإنما لون من الغزل الجنسى يحتضن فيه الولد البنت ويلهو معها كما يشاء دون أن يفقدها بكارتها.. ويسمونه.. عندهم « أو مبانى ناجويكو ».

وهذه الممارسة لها طقوس خاصة ولها احترام دينى.. فالأولاد والبنات يجتمعون فى أكواخ خاصة تعد لهذا اللون من الغرام.. وكل حبيبة تجلب لحبيبها الفواكه واللحم والبيرة.. ويقضون نهارهم فى الرقص والغناء والشرب وإذا كان عدد الأولاد أكثر من

عدد البنات فإن البنات يخترن ما يوافق مزاجهن من الأولاد.

والعادة أن يقوم أحد الأولاد وهو يتثاءب قائلاً.. أنا ذاهب لأتمدد.. ثم يدخل إلى الفراش فتتبعه حبيبته حيث يخلع عارياً وتخلع هى قميصها وتحتفظ بقطعة من الثياب حول نصفها الأسفل.. ثم يندمج الاثنان فى النجوى والغزل والعناق والعبث.. حتى تخور قواهما فينامان نوماً عميقاً..

وتبادل القبلات بالشفاه غير معروف عند الجيكويو..

ويبدو أن هذه الممارسة هى الطريقة التى يقبلون بعضهم بعضاً بدلاً من الاتصال بالشفاه..

«وأومبانى ناجويكو» لها حدود لا يسمح بتجاوزها.. وحينما يحدث الاتصال الجنسى الكامل والحمل نتيجة «الجويكو» فإن الرجل يعاقب بدفع دية من تسعة خراف وتعاقب البنت بعمل وليمة كاملة لبنات جنسها.. وتكون محل نقد شديد من الجميع.. ولا يسمح للرجل بعد هذا بالجويكو إلا بعد أن يقوم بطقوس التوبة والتطهر..

ولا يعتبر الابن الناتج من هذه العملية ابن حرام.. إنما يتقبل كأى ابن من أبناء العائلة..

وكثيراً ما تحدث مخالفات الجويكو دون أن تكتشف لأن الاثنان تعجبهما - الحكاية الجديدة - فيستمران فيها.. وتمر المشكلة بسلام طالما أن الاثنين يأخذان حذرهما من الحمل..

والروميو الذى يشتهر بين البنات اسمه عندهم.. «كيومبانى»..

وأحياناً تبلغ من جاذبية الكيومباني أن تكون له أربعون حبيبة في وقت واحد..

ومن المعتاد أن يمارس الأولاد العادة السرية قبل الطهور..

والكبار ينظرون إلى هذه المسألة على أنها شيء طبيعي. ونوع من التأهب والاستعداد للممارسة الجنسية فيما بعد..

ومن المعتاد أن يتبارى الأولاد في إظهار كفايتهم في هذه العادة ويكون ذلك في الخلاء بعيداً عن البيوت..

أما بعد الطهور.. فإن ممارسة هذه العادة تعتبر مثاراً للسخرية إذ لا يعود هناك داع.. ففي إمكان الجميع أن يمارسوا « أومباني ناجويكو ».

والشذوذ الجنسي غير معروف في الجيكويو.. واتخاذ أي وضع غير طبيعي في الاتصال الجنسي بين الرجل والمرأة جريمة يحرمها الدين تحريماً شديداً..

والاتصال الجنسي محرم بين أبناء البطن الواحدة.. والإخوة والأخوات والعمات والخالات.. لا يجوز لهم التزاوج أو الاتصال الجنسي.

● ● ●

وبالرغم من هذه الحريات الجنسية الواسعة بين أفراد الماو ماو.. هناك إقبال شديد على الزواج.. والواحد منهم لا يكتفي بزوجة واحدة.. بل يتزوج عليها ثانية وثالثة ورابعة إلى الخمسين والستين زوجة...

والرجل عندهم لا يعتبر رجلاً ولا يحظى بالاحترام إلا إذا تزوج وابتنى كوخاً وأنجب ذرية..

والزواج عندهم له أهمية دينية وروحية فالأرواح لا تستقر بعد الموت ولا تسكن إلا إذا وجدت منزلاً تنزل فيه وذرية وفيرة ترعاها وتمنحها بركتها.. وبدون الذرية تفقد الروح صلتها بالأرض وتتشرد في الظلمات ولا يربطها بالعالم اهتمام ولا عاطفة.

والزواج يبدأ عادة بالتعارف.. وقد تنشأ علاقة طويلة.. وحينما يأنس الرجل في نفسه الحب للفتاة التي اختارها فهو في العادة لا يذهب لخطبتها وإنما يبعث أصدقاءه..

ويذهب أصدقاؤه إلى بيت العروس ومعهم هدية من البيرة ثم يقول أحدهم في تلميح.. ما رأي ست البيت الجميلة في أن تضم إلى كوخها رجلاً مشرداً ليس له بيت.. فتسأل الفتاة في خجل.. ومن يكون هذا الرجل.

فيقول لها اسم صاحبه.. فإذا وافقت فإنها تمهله لزيارة أخرى وأخرى من باب الدلال.. ثم تقول له في الزيارة الثالثة أو الرابعة إنها موافقة..

ولكن الأمر بيد أبيها.. وإذا لم تكن موافقة فإنها تقول له من البداية إنه ليس في كوخها مكان لأحد.

وفي حالة الموافقة يبعث العريس بأبيه وأمه إلى بيت العروس ومعهم هدية أخرى من البيرة.. وفي جلسة عائلية يشرب الجميع البيرة.. وتأخذ العروس رشفة علامة القبول.

ويحتفل العريس بالمناسبة ويذبح شاة ويدعو أفراد العائلتين ويسكر الجميع ويأكلون ويغنون ويرقصون.

ثم يبدأ العريس فى دفع المهر على أقساط من رءوس الغنم.. حتى تبلغ الدفعات التى قدمها من ثلاثين إلى خمسين رأساً فيحدد يوماً.. لعقد الزواج.

وفى اليوم المعلوم يذبح ثوراً ويدعى الجيران ، وتدار الخمر ويغنى الجميع وينشدون أناشيد الفرح وتتلقى العروس الهدايا من أقرانها..

ويبدأ العريس فى بناء الكوخ وتأسيسه..

وتنتقل العروس من بيت أبيها إلى كوخ عريسها ، والعادة أن يكون هذا الانتقال بطريقة مسرحية.. فتتسلل صديقات العروس فى الفجر ويخطفن العروس ويأخذونها عنوة إلى بيت عريسها.. مكتوفة اليدين والرجلين.. وهى تصرخ وتولول هاتفة بطريقة تمثيلية.. لا أريد هذا الرجل.. لن أذهب إلى رجل لا أحبه.. الزواج لا يكون بالإكراه.. لن أترك بيت أبى... لن أترك أمى.. أين أنت يا أمى.. أين أنت يا أبى.. أنقذونى.. الحقونى.. يا ناس..

ويستغرق الجميع فى الضحك والعروس ماضية فى الصراخ.. وصاحباتها ممسكات بها لا يتركنها.. حتى يصل الموكب بيت العريس.. فيلقين بها بين أحضانه.

وبينما يهلل الجميع بالأغانى المرحة تنطوى العروس فى غرفتها تغنى الأغانى الحزينة باكية على حياتها القديمة وعلى فراق أهلها وخلانها.

وتظل تردد هذه الأغانى سبعة أيام.. وفى اليوم الثامن تخرج لتزور بيت أبيها وتعود محملة بالهدايا.. وأحياناً تعود ومعها بقرة..

وبهذا تنتهى مراسم الزواج.. ويبدأ الزوجان حياتهما العادية..

ومن المعتاد أن تقول الزوجة لزوجها بعد مرور سنة وبعد أن تكون قد رزقت بطفلها الأول..

يا زوجى العزيز.. إننا نعيش فى بحبوحة من الرزق.. ولنا طفل جميل وبيت واسع وأرض كثيرة ألا ترى أنه قد آن الأوان لكى تتزوج وتضم إلى بيتنا زوجة ثانية..

يا زوجى العزيز.. إنى كما ترى مشغولة بالطفل.. ولا أجد الوقت ولا القوة لأذهب إلى الغابة لأجمع لك الأخشاب وأجلب لك الماء.. وأنت فى حاجة إلى زوجة ثانية تخدمك وترعى ضيوفك.. وأنت بحمد الله صحيح البدن موفور العافية.. وهذا هو الوقت لتسعد بزوجة أخرى تجلب لك أطفالاً آخرين يملأون علينا البيت بالمرح.. والمثل يقول.. إن النهر الجارى لا ينتظر العطشان.. وقد آن الأوان لتكون لى رفيقة أسعد بها.. ما رأيك فى فلانة بنت فلان.. إنها جميلة وطيبة وجذابة.. ما رأيك فى أن تعمل على كسب قلبها.. وإذا كان المهر يعوزك فإن أقاربى فى سعة من الرزق ويمكنهم مساعدتك. يا زوجى العزيز لا تخيب رجائى..

وهكذا يذهب الرجل ليخطب زوجة ثانية ثم ثالثة ورابعة بنفس الطريقة.. وإذا كان غنياً وقادراً فإن زوجاته يتضاعفن إلى خمسين زوجة وأكثر.

ولا توجد غيرة بين الزوجات.. وكل زوجة تنفرد بكوخها الخاص وقطعة الأرض التى تزرعها والأغنام التى تربيها.. والزوج يخصص لكل زوجة يوماً أو يومين فى الشهر..

والزوج أيضاً لا يغار على زوجته.. وفى العرف المتبع أن الضيف الذى ينزل فى بيت الجيكويو يكون له الحق فى الاستمتاع بزوجة من زوجاته.. وإذا كان الضيوف كثيرين فإن كل زوجة تختار من يميل إليه قلبها من الضيوف لتدعوه إلى كوخها وتقضى الليل بين أحضانه.

والأطفال الذين ينتجون من هذه العلاقة يكونون من حق الزوج.. والزوج لا يلتفت إلى هذه المسائل طالما أنها تحدث علانية أمام عينه وبعلمه.. أما إذا قابلت الزوجة فى كوخها رجلاً فى الخفاء فإنها تكون مخطئة خطأ كبيراً.. وكذلك الرجل الذى يعاشرها فى الخفاء.. وعلى الاثنين أن يدفعا غرامة عدداً من الأغنام.. وأحياناً يكتفى الزوج بأن يضرب زوجته علقة ولكنه لا يطلقها..

وسبب الطلاق الوحيد المشروع هو العقم.. وفى هذه الحالة يدعو الزوج رجالاً آخرين لمعاشرة زوجته.. أملاً فى أن تحمل من أحدهم.. فإذا لم تحمل بعد محاولات متكررة يطلقها..

وقد يطلق الرجل زوجته بسبب الكسل والإهمال وعدم رعاية البيت والأولاد وعدم تعاونها معه فى الحقل.

والعائلة فى العادة تقوم باختصاص محاكم أول درجة فتنظر المشاكل التى تنشب فى محيطها وينعقد مجلس من الكبار تدار فيه

أقداح البيرة وتسكب بعض من هذه البيرة على الأرض لتشربها أرواح الأجداد وترتل الصلوات ويدلى كل خصم بشهادته ويحكم كبير العائلة بما يراه.. فإذا قبل المتخاصمون تقام وليمة شكر ويتصافح الجميع.. وإذا لم يقبلوا تحول القضية إلى « الكاياما » وهى محكمة القبيلة..

وتنعقد « الكاياما » تحت شجرة حيث يجتمع أشياخ القبيلة وكبار السن فيها ويجلسون فى نصف دائرة.. ومن خلفهم شباب القرية..

وتفتح الجلسة بتلاوة صلاة تقليدية.. ويتقدم الطرفان المتخاصمان بدفع رسوم القضية وتتفاوت حسب نوع القضية من جرة من البيرة إلى عدة رءوس من الغنم.. ثم يعرض كل طرف شكواه ويقدم شهوده ويدور نقاش قانونى بين الموجودين يشترك فيه من يشاء.. ثم ينتخب الموجودون هيئة من القضاة من بين الحاضرين. وينتحى القضاة مكاناً بعيداً للمداولة فى حين تذبح الشاة أو العنزة التى قدمها المتخاصمون رسوماً لقضيتهم وتشوى على النار ويوزع لحمها على هيئة المحكمة حسب أقدميتهم.. ثم يقف الحاجب وسط الدائرة ويعلن الحكم الذى وصل إليه القضاة..

وفى العادة يقبل الطرفان الحكم.. وفى الحالات القليلة التى لا يقبلان فيها تنظر القضية مرة أخرى فى جلسة استئنافية.

وقانون العقوبات فى الماو ماو ليس فيه أحكام بالسجن أو الإعدام ، وإنما الأحكام كلها هى أحكام بالتعويض والدية

والغرامة.. حتى فى جرائم القتل.. يدفع فيها المتهم غرامة.. أو تتضامن عائلته فى دفعها نيابة عنه..

والحالة الوحيدة التى كان المتهم يعدم فيها.. هى حالة اتهامه بممارسة السحر الأسود. « أوروجى » وثبات التهمة عليه.. وفى هذه الحالة كان الساحر يحرق حياً.

والسلطات البريطانية تمنع الآن تنفيذ أمثال هذه الأحكام.

• • •

وديانة الماو ماو فيها كثير من الشبه بالأديان السماوية ، فهم يؤمنون بإله واحد يسمونه « موجايى » خالق لكل الأشياء.. رازق.. مقتدر ، واهب للخيرات والنعم.. سميع الدعاء.. جبار.. منتقم.. يسكن السماء ولكنه ينزل إلى الأرض ليتفقد عبيده ويكافئ الصالحين منهم.

وهو واحد أحد لم يلد ولم يولد وليس له كفواً أحد.. وليس كمثله شىء.. ولكنه يعرف من آثاره وأفعاله.. البرق خنجره الذى يشق به طريقه أينما سار.. والرعد وقع خطاه :

والله عند الجيكويو كبير.. لا يصح دعوته للمسائل الفردية التافهة.. ولا يدعى إلا للكوارث الكبرى التى تهدد القبيلة.. أما نجدة الأفراد فيكفى فيها الاتصال بأرواح الأسلاف والأجداد.

والجيكويو ليست لهم معابد.. وإنما لهم أشجار مقدسة يقدمون عندها قرابينهم ويتلون صلواتهم.

والصلاة عندهم ليست روتيناً يومياً.. وليست فروضاً دورية

تؤدى فى كل الأوقات.. وإنما هى تؤدى وقت الحاجة فقط لأنهم يعتقدون أن الله عظيم ولا يصح إقلاقه بالأدعية والنداءات بمناسبة وبدون مناسبة.

والله ليست عنده هيئة من الرسل والأنبياء يبعث بهم للتبشير بأوامره ونواهيه.. وإنما هو يفعل ما يشاء مباشرة بلا وساطة.. يضع ما يريد أن يقوله فى رءوس الناس مباشرة بدون وساطة جبريل.

والجيكويو لا يحزن لما يقضى به الله.. فحينما يموت له طفل فهذا قضاء الله.. وهذه إرادته.. والله هو الذى يعطى.. والله هو الذى يأخذ.

وحينما يمرض أحد الأفراد فإنه لا يلجأ إلى الله وإنما يلجأ أولاً إلى الطبيب ليصف له الأعشاب المناسبة.. فإذا لم يفلح.. يلجأ إلى السحرةليتصلوا بأرواح أجداده لاسترضائها.. فإذا لم يفلح السحر.. فإنه يلجأ أخيراً إلى الله.

والجيكويو لا يعبدون الأجداد والأسلاف ولكنهم يلجأون إليهم ليكونوا شفعاء عند الله.

وتقديس الأجداد والأسلاف مثل احترام الآباء وكبار السن جزء من ديانة الجيكويو.. والابن حينما يخطىء فى حق أبيه يقدم له شاة أو عنزة.

والأبناء يختصون آباءهم بأشهى الأطعمة ، وحينما يذبحون شاة يعطون لسانها وكبدها ولحم ظهرها لآبائهم..

وطقوس الأجداد والأسلاف ليست عبادة ولكنها احترام

وإجلال. وهى لا تفترق كثيراً عن فكرة الأوروبى حينما يقيم نصباً تذكارياً للجندى المجهول يرمز به إلى كل الموتى الذين ضحوا بأنفسهم من أجله.

والموتى يمثلون عند الجيكويو هيئة كاملة لمعونته وخدمته وإرشاده. إدارة كاملة من أرواح الآباء والأجداد وأرواح رؤساء العشيرة ومجلس أعلى لهذه الإدارة من أرواح ومشايخ القبيلة.

ولا يوجد كهان ولا قساوسة بين الجيكويو.. وإنما الأب والإخوة الكبار فى كل عائلة هم الذين يعلمون الأطفال دينهم.

ولكن هناك الأخيار والأبرار الذين يصطفيهم الله ويطلعهم على أسراره.. وهم فى كل قبيلة يوكل إليهم أمر التنبؤ وكشف المستقبل ومعرفة دلالات الغيب.

وحينما يتأخر نزول المطر ويطول موسم الجفاف يتجه نظر القبيلة إلى هؤلاء المختارين يسألونهم السبب فى هذه النقمة الإلهية..

وفى العادة ينصح هؤلاء بتقديم قربان.. ويحددون مواصفات القربان.. حمل أسود.. أو عنزة بيضاء.

ويبدأ الاستعداد لطقوس القربان.. ويشترك فى الموكب الشيوخ والعجائز من النساء اللاتى تجاوزن سن الإنجاب.. والكبار الذين ينضمون إليهم يراعون الصيام عن كل اتصال جنسى لمدة ثمانية أيام.

ويذهب الجميع إلى شجرة التين المقدسة. ويبدأ أكبر الموجودين فى ترتيل الصلاة يجاوبه كورس من الباقين فى أصوات خاشعة.

ربنا يا من تجعل الجبال ترتجف.. والأنهار تفيض والأمطار تهطل.. ربنا إن أطفالنا جياع.. وأغنامنا عطشى.. وأراضينا تحرقها الشمس.. وهذه ذبيحتنا عند قدميك.. وهذا أجود ما عندنا من عسل النحل المخمر واللبن.. نسكبه بين يديك... ليرضى قلبك عن أبنائك ولتنزل عليهم المطر.

ويأخذ المرتل رشفة من البيرة ثم يبصقها على الأرض لتشرب معه أرواح الأجداد.. ثم يبدأ الموكب بالطواف حول الشجرة المقدسة سبع مرات وهو يرش البيرة واللبن حول الشجر ويُؤْتَى بالضحية وتقتل خنقاً ثم تسلخ ويشوى لحمها وتلف أمعاؤها حول جذع الشجرة ويُعْطَى الموجودون نصيباً من اللحم.. ويُحرْقُ الباقى لله.

ومثل طقوس المطر توجد طقوس أخرى للزراعة.. وطقوس لحماية المزروعات من الحشرات الضارة.. وطقوس لمقاومة الأمراض والأوبئة.

• • •

والسحر جزء لا يتجزأ من حياة الماو ماو.

وهم يسحرون لجلب الحب.. ويسحرون للعلاج.. ويسحرون لمقاومة الأرواح الشريرة.. ولإخصاب الزرع.. وللوقاية من الحيوانات المفترسة.

وهناك سحرة محترفون يقضون نهارهم فى تجهيز الأعشاب السحرية ودقها وسحقها وتركيب الوصفات السحرية وصناعة الرقى والأحجبة.

والسحر بالحب له طرق مختلفة عند الجيكويو.. وفى إحدى هذه الطرق يضع العاشق غصناً صغيراً من شجرة « أومبانى » تحت لسانه بعد أن يقرأ عليها الساحر طقوس الحب السحرية.. حتى إذا التقى بحبيبته طارحها بغرامه فتقع فى حبه لفورها..

وجومو كينياتا الزعيم المعروف.. وهو من الجيكويو يذكر فى كتابه عن كينيا أنه جرب هذه الوصفة وأنها نجحت فى استمالة قلب حبيبته..

والطريقة الثانية أن يحصل المحب على خصلة من شعر حبيبته أو قصاصة من أظافرها ويعطيها للساحر فيخلطها بأعشابه السحرية ويضعها فى حجاب يقسمه نصفين.. نصف يعطيه للعاشق والنصف الآخر يدسه فى فراش الفتاة.

ويقول العاشق وهو يضم يديه على الرقية :

أيتها القوى السحرية.. اجعليها تحلم بى فى نومها..

احملى إلى أذنيها همساتى وأفكارى لتعيش مثلى فى انشغالى..

وفى نصف الليل حينما يهدأ كل شىء يخاطب محبوبته قائلاً:
يا حبيبتى.. افتحى قلبك لتسمعى كلماتى..

لقد أرسلت إليك همسة الحب السحرية مع شعاع الفجر.. أداعب بها قلبك حتى يلين ويمتلىء وجداً وصبابة..

وهناك سحر آخر شرير يسمونه السحر الأسود « أوروجى » والساحر الذى يمارس هذا النوع من السحر يسمونه «الموروجى».

والموروجى يصنع تمائمه من مسحوق الأعشاب السامة يخلطها بأعضاء آدمية.. عيون آدمية.. وأعضاء تناسلية منتزعة من الجثث المتعفنة.. وحلمات نهود بشرية.. وجذاذات من الأيدى والأرجل والآذان ودم متجمد.. وهو يحصل على هذه الأجزاء بقتل ضحاياه بالسم واستدراجهم فى الغابة حتى يموتوا فينقض عليهم ليقطع شرائح من كل مكان خبيث فى أجسامهم.. ويجفف هذه الأجزاء ويسحقها ويخلطها بأعشابه السامة ويصنع منها تمائمه السوداء التى يقرأ عليها تعاويذه الشيطانية..

وأحياناً يصنع منها شراباً قاتلاً.. أقل جرعة منه تقتل لساعتها «والموروجى» يعيش منعزلاً متوحداً.. يتنقل متخفياً بين الكهوف والغابات ينام بالنهار ويصحو بالليل كالبوم والخفاش.. وقديماً كانت سلطات القبيلة تطارد هؤلاء السحرة وتقبض عليهم وتحرقهم أحياءً..

والسلطات البريطانية تمنع الآن هذه العقوبة.. وتستبدل بها عقوبة السجن.. تطبقها على جميع السحرة.. الذين يسحرون للنفع أو للضرر..

ذات ليلة جلس الساحر «موجا واكبيرو» بين أتباعه من الجيكويو يروى لهم الحلم الغريب الذى رآه فى منامه.. وكيف أنه رأى رجالاً بيضاً يقبلون من البحر وفى أيديهم عصى تخرج من أفواهها النيران.. ويمدون على الأرض ثعباناً من الحديد.. وكيف أنه رأى الثعبان الحديدى يمشى ويبتلع فى طريقه كل شىء..

وكان الجيكويو من حوله.. يحملقون ذاهلين.. كأنهم يستمعون

إلى أسطورة من أساطير الجن..

كان هذا منذ مائة عام..

ولم يكن ذلك الحلم أسطورة من أساطير الجن.. وإنما كان تاريخاً.

فقد صدقت رؤيا « موجا واكبيرو » وتحققت نبوءته بعد سنوات قلائل.. ونزل الإنجليز إلى القارة ومعهم البنادق.. ومدوا الخط الحديدى بين كينيا وأوغنده (الثعبان الحديدى الذى ابتلع فى طريقه كل شىء).

وقد ابتلع الإنجليز فى طريقهم كل شىء. ونشروا الذعر أينما حلوا ، وروعوا النفوس ومسخوا العقول وأتلفوا الأبدان بما جلبوا من أمراض فتاكة..

مع حملة ستانلى التى جاءت إلى أوغندة جاءت ذبابة تسى تسى ومعها مرض النوم إلى جنوب السودان..

ومع السفن المحملة بالعتاد التى كانت تتقاطر على الشاطئ الأفريقى جاء السل.. والزهرى.. والسيلان.. لينتشر فى القارة ويرعى فيها كما ترعى النار فى الهشيم..

وكانت الحضارة الغربية بالنسبة للوطنى من أهل البلاد صدمة.. كانت شيئاً كالسحر..

البندقية.. والقطار.. والسيارة.. والكهرباء والراديو.. والقراءة والكتابة..

هذه الحروف الشيطانية التى يكتبها ذلك الرجل الأبيض على

الورق وينقل بها أفكاره ورغباته بسرعة البرق. كانت شيئاً يذهله ويصيب عقله بالدوار.

ونظر الأفريقى البدائى حوله فرأى حياته تنهار.. وكل ما فيها من معان يتحطم... أديانه.. معتقداته.. عاداته التى نشأ عليها.. أرضه. بقّراته. عالمه الحبيب الذى ارتبط به.. داسته الأقدام.

وأصابه داء عجز الطب عن علاجه.. هو داء اليأس.. والتعب النفسى..

وهلكت قبائل واختفت.. مثل قبائل الماورى.. وانقرضت قبائل أخرى..

قبيلة الزاندى التى كانت من أكبر قبائل أفريقيا عدداً تضاءلت حتى أصبحت فى عداد المليون.

الماو ماو.. والماكامبا.. والماساى.. نقصت مواليدها حتى أشرفت على الفناء..

سكان أستراليا الأصليون.. لم يبقَ منهم إلا بضعة معدودة فى الصحارى.

وراح المستعمر يتبجح فى كل مكان بأنه ينشر المدنية.. فى مجاهل لا تعرف مدنية.. وينشر النور والعرفان.. بين متوحشين ليس فى حياتهم قيم ولا أخلاق..

والحقيقة أنه أخذ الكثير من قيم هؤلاء المتوحشين وعاداتهم وأدخلها فى حضارته..

تعلم منهم شرب الشاى والكاكاو والقهوة.. وأخذ عنهم عادة

التدخين.. وشرب الغليون..

ولطش الفنون الأفريقية التشكيلية.. والموسيقى الأفريقية.. وإيقاعات الجاز.. والرقص..

وأخذ عادة العرى. وجعل منها فناً وفلسفة.. وأنشأ نوادى للعراة فى أكثر عواصمه تقدماً.

وأخذ الحرية الجنسية من المجتمع البدائى لتغدو بعد ذلك سمة من سمات أرقى مجتمعاته.

وأصبحت « الأومبانى ناجويكو » من تقاليد البنات والأولاد فى المجتمع الأمريكى.. يمارسونها.. قبل الزواج.. ويسمونها فى بلادهم Huyying and Necking.

والحرية الجنسية ذاتها أصبحت نظرية ينادى بها فلاسفة أمثال فرويد ، والسحر.. والمعارف الغيبية.. والأرواح.. أصبح لها كرسى فى أرقى الجامعات الأوروبية.

لم يكن الأفريقى متوحشاً.

ولم تكن حضارته.. بربرية متأخرة..

والحق أن هذه البربرية احتوت على الكثير من اللمحات.. التى فاتت على الرجل الأبيض صاحب العلم.. والنور والعرفان.

كان اتصال الغرب بالشرق فى أفريقيا تزاوجاً متبادلاً.. فقد أعطى الأفريقى كل شىء.. أرضه وبلده.. وجسمه.. وروحه.. وكان المستعمر شحيحاً جداً يعطى بالقطارة.

احتفظ لنفسه بأسرار العلم والصناعة والمعارف العلمية..

واكتفى بنشر اللغة الإنجليزية.. وتوزيع نسخ من الإنجيل.

وكانت السياسة التعليمية فى المستعمرات توجه نحو الدراسات النظرية ونحو خلق طبقة من الموظفين أصحـاب الياقات البيضاء.. ونحو احتقار المعارف العملية.. والعمل اليدوى.

وكانت المدارس التبشيرية تعـمل من ناحية أخرى على إضعاف الروح القومية والتماسك الاجتماعى.

ولم يكن الأفريقى فى حاجة إلى عقـائد.. فعنده من هذه العقائد الكثير.. وعنده رب رحيم غفور يهديه فى حياته.

وديانة الأفريقى ديانة رقـيقة رحيمـة ملائمة لحيـاته الشاقة.. فليس فيها فكرة الجحيم.. ولا فكرة العذاب الأبدى فى جهنم.. ولا فكرة الخطيئة الأولى.

وكانت التـعاليم المسيحـية بالنسبة له فى البـداية.. شيئـاً غير مفهوم.

لم يكن يفـهم معنى لأن يبـعث بعـد الموت ليوضـع فى جـهنم.. لأنه أخطأ ذات مـرة على الأرض.. كان هذا يبلبل عـقله.. وحينـما كان القـسيس الكاثوليكى يواجهـه بمصيره التعس إذا تزوج أكـثر من زوجة واحدة.. كان يقع فى صراع.. وحيرة لا آخر لها..

فالأفريقى البدائى لم يكن يملك من الأسلحة غير النسل الوفير، وفى حـربه ضد الفـقـر والجهل والمرض والتـأخـر والحيـوانات المفترسة لم يكن له حول ولا قوة سوى نسله.

وكان معنى أن يتزوج بواحـدة.. ويتضاءل نسله.. أن ينقرض.

ويفنى وهذا هو ما كان حادثاً بالفعل.. فقد كان فى طريقه إلى الانقراض.

وبدأ الأفريقى يهرب بعاداته وتقاليده إلى الغابات.. ويلوذ بالجبال.. والأفريقى الذى نال حظاً من الثقافة كان يناقش القسيس.. ويسأله عن.. يعقوب وداود.. وسليمان.. وسائر الأنبياء الذين ورد ذكرهم فى الإنجيل فى إجلال وإكبار.. وكل منهم كان له جيش من الزوجات..

وهم هناك يفضلون أسماء.. داود.. وسليمان.. ويعقوب.. لهذا السبب.

وفشل المبشر فى اقتلاع عادة تعدد الزوجات لأنها كانت مرتبطة بشىء أعمق من مجرد المتعة.. هو حفظ النوع.

كانت إملاء من الطبيعة والبيئة والظروف.

وبدأ المبشر يتبع أسلوباً آخر. هو أسلوب الخدمات.. فراح يتقرب إلى هؤلاء البدائيين بالهدايا فيحمل إليهم الخرز والصابون.. ويقدم لهم وجبات اللبن.. ويداوى أطفالهم وماشيتهم.. ويطهر مزروعاتهم من الحشرات.

وبدأت الكنيسة تثبت أقدامها كمركز للخدمات وسط الغابة.

ولكن برغم الإخاء والمحبة وتعاليم المسيح.. كان السود والبيض يصلون فى كنائس منفصلة.. وكانت هناك كنائس للسود وكنائس للبيض.

وفى جنوب أفريقيا.. كان اضطهاد اللون أشد بكثير..

كانت المسيحية فى أفريقيا مظهراً من مظاهر الدعاية.. ولم تكن تمت إلى المسيحية الحقيقية بنسب.. كان الاستعمار يتخذ منها مبرراً ليفعل ما يشاء باسم الدين.

والحقيقة أن هذه القبائل البداية كانت تعيش فى إخاء وتعاون ومحبة أكثر من المجتمعات التى عرفت الإنجيل.

وفى قبيلة الماو ماو كان الطفل ينشأ على تربية تعاونية خالصة.. الزراعة يشترك فيها الجميع الزوجة والأولاد والبنات والأطفال.. جنى المحصول.. إعداد الطعام.. طحن الحبوب.. صناعة المريسة.. الخروج للصيد.. اللعب.. الرقص.

الاحتفالات الدينية.. كل ألوان النشاط تزاولها الجماعة معاً.. حتى دية القتيل والتعويض عن الجرائم تشترك الجماعة فى تأديتها عن القاتل متعاونة متكاتفة.. حتى مهور العرائس تشترك العائلات فى تدبيرها ودفعها عن العريس..

الطهور يُؤدَّى جماعياً.

الكوخ يبنيه جميع الجيران تطوعاً بدون أجر.

الأرض تمنح للزراعة بدون مقابل من باب الصداقة والحب والثقة.. الطفل يولد ويتربى ليجد نفسه عضواً فى فريق.. يفرح. ويحزن ويبكى.. ويضحك.. بروح الفريق..

الأفراد ينادون بأسماء آبائهم.. ابن فلان.. بنت فلان..

الأب هو المربى والمعلم والقائد الروحى.. وهو يأخذ طفله من يده ليرتاد معه الغابة ويشرح له على الطبيعة أحوال النبات

والحيوان ويأخذه معه إلى « الكاياما ».. محكمة القبيلة.. ليتدرب على مناقشة القانون.. ويأخذه معه فى المحافل الدينية ليلقنه واجباته الدينية..

التكوين الأخلاقى لكل فرد.. خال تماماً من الأنانية.. والفردية والملكية المستغلة.. وعبودية الأجر.. التى يعانى منها مجتمع الغرب..

وما أكثر ما كان الماو ماو يقرأ فى الإنجيل عن شرور لا يفهمها..

وما أكثر ما كان القسيس يحذره عن رذائل لا علم له بها..

كان يحضه على الصيام.. والامتناع عن الخمر.. والإحسان إلى الفقراء..

كيف يصوم ذلك الصائم الأبدى.. إنه لا يكاد يأكل شيئاً.. كان يقول له.. لا تكذب.. لا تسرق..

من الذى يسرق..؟!!

ومن الذى يرفع الأعلام الأجنبية فى كافة أرجاء البلاد.. ويضع المراسى على الشاطئ.. ويحتكر خيرات البر.. البحر.. والجو... ويضع فى جيبه باسبورت إقامة فى بلد لا يملكه.

لو أن ذلك القسيس الطيب سأل نفسه مرة واحدة هذا السؤال البسيط.. لعرف حقيقة الدوافع التى أتت به إلى ذلك المكان. وحقيقة الأغراض التى سخر من أجلها.

فلم يكن المبشر خادعاً.. وإنما كان مخدوعاً وكان يخدم خطة

كبرى لا يدرى عنها شيئاً.

فى وسط الصراع كان ذلك البدائى المهزوم المغلوب على أمره لا يجد من يلوذ به سوى ماضيه وتقاليده.. فيتمسك بها.. ويقاوم كل جديد يقتحم عليه حياته.. كان يرفض الجديد الذى يضره.. والجديد الذى ينفعه.

كان يفضل الجديد الردئ الذى يصنعه مواطنوه على الجديد المصقول الذى يصنعه المستعمرون البيض..

وكان يقاوم الجرارات الميكانيكية التى تحرث الأرض.. ويقف فى طريقها معتقداً أنها تفسد الأرض بتقليبها..

تماماً كما كنا نفعل زمان حينما كنا نرفض السماد الكيماوى خوفاً من إتلاف المحصول..

حكايات يرويها الغربيون كدلالة على التأخر.. وهى ليست دلالة تأخر بقدر ما هى دلالة حيوية وانفعال.. فهى ردود أفعال طبيعية من ضعيف متأزم يرتاب فى كل ما يأتيه من القوى..

والماو ماو من القبائل القليلة التى احتفظت بحيويتها.. طوال محنة الاستعمار ظلت محتفظة بتماسكها ووحدتها وقوتها..

والسر فى هذا أنها أكثر من مجرد قبيلة.. أكثر من مجرد تجمع عددى من أفراد بدائيين.. فهى حضارة وإن كانت لوناً بدائياً من الحضارة..

وهى كديانة.. وكأخلاق.. وكنظام.. وكطريقة حياة.. تمثل مرحلة متفوقة.

ولهذا وقفت على قدميها أمام حضارة عمرها عشرون قرناً.. واستطاعت أن تمنحها شيئاً.

واستطاعت أن تواجه الظلم.. وأن تتكتل فى تنظيمات.. وتحارب الاستعمار.. وتزلزل حصونه... وسجونه.. وترغمه على التسليم بمطالبها..

وهى معجزة لم تحققها الحراب.. والنبال.. وإنما هى معجزة حققها نظام.

نظام فيه مقومات حضارة.

وكلمة ماو ماو التى تجرى على الألسن كهمهمة بربرية لا تدل على حقيقة هذه القبيلة العجيبة.. حيث كل عادة.. وكل عرف.. وكل تقليد من تقاليدها غنى بإنسانيته..

ولا غرابة فى أن تمنحنا هذه القبيلة زعيماً إنساناً مثل.. أومو كينياتا..

السودان

السودان تيه شاسع.. مليون ميل مربع فيها كل صنوف النبات والحيوان وكل ضروب الأجناس البشرية.. وكل ألوان الطقس من جفاف شديد.. إلى رطوبة.. إلى حر لافح.. إلى أمطار هادرة. إلى صقيع..

الجنس الحامى والسامى والزنجى فى أخلاط وأمزجة وكوكتيل من كل الدرجات.. سواد كالأبنوس.. سمرة نحاسية.. سمرة خمرية.. ألوان قمحية فاتحة.. تقاطيع أوروبية دقيقة.. تقاطيع زنجية غليظة.. ملامح عربية.. سمات مصرية..

فى قبائل بنى عامر تجد ملامح الجنس الحامى فى صورته النقية.. الشعر المتموج والأنوف المستقيمة والبشرة الخمرية والقامة المعتدلة.. والجنس الحامى هو الجنس الذى انحدرت منه الشعوب الفرعونية.. وأصله فى آسيا والقوقاز.

وفى قبائل الرشايدة والبقارة تجد ملامح الجنس السامى فى صورته النقية.. الوجوه السمراء المستطيلة العربية والقامة الطويلة كالرمح.

وعلى خط الاستواء تجد الملامح الزنجية الصرفة.. الشعر الأجعد والأنوف المفرطحة والشفاه الغليظة المقلوبة..

وحاصل جميع كل هذه الصفات تجده فى كل مكان نتيجة التزاوج المستمر على مدى الأجيال.

وكل شىء فى السودان بالألف وبالمليون.. الثروة الحيوانية بند الماشية وحدها ٢١ مليون رأس.. الطيور الملونة أسراب من ملايين لم تجرؤ مصلحة إحصاء على عدها بعد.. الأمطار كذا مليار أمتار مكعب.

مديرية كردفان وحدها مساحتها مثل مساحة فرنسا.. وهى واحدة من عدة مديريات فى السودان.

ولكن الشىء الوحيد القليل والنادر هو التعداد البشرى.

كل السودان بمتاهاته الشاسعة تعداده ١٢ مليونا وفى آخر إحصاء رسمى فى سنة ١٩٦٠ عشرة ملايين ومائتى ألف بالضبط.

مديرية كردفان التى هى مساحة فرنسا تعدادها مليون وسبعمائة ألف فى الوقت الذى تزيد فيه فرنسا على أربعين مليوناً.

الخرطوم أكثر المدن ازدحاماً تعدادها نصف مليون أى أقل من تعداد شبرا.

والنتيجة أن ثروات السودان كلها ما زالت مكنوزة فى التربة وفى الماء وفى الغابة.. بلا تشغيل.. لا توجد الأيدى الكافية

لاســتخراجـهـا.. والأيدى القليلة الموجـودة يشلهـا الحـر اللافح وترهقها المسافات الطويلة.. بلا طرق.. وبلا مواصلات سريعة..

ومع ذلك فـالحكومـــة بالموارد البـشـرية القليلـة وبالميـزانيـة المحدودة صنعت الكثير..

مشـروع مثل مشـروع الجزيرة.. روى مليـون وثمانمائة ألف فدان وشغل. ٣١ ألف مزارع وأنتج أقطاناً ممتازة طويلة التيلة.

وتأميم المشروع فى سنة ١٩٥٠ حول اقـتصاديات المنطقة إلى اقتصاديات اشتراكية وحقق دفعاً ثورياً هائلاً..

ومشـروع مثل مشـروع خشم القربـة الذى يجرى العمل فـيه الآن سوف يروى مناطق أوسع. ويحقق تقدماً أكبر.

وحـينما دخلت الخـرطوم.. لاحظت أكثـر من شارع جـديد تم تخطيطه.

والخرطوم مدينة من طراز فريد.. فهى تجمع خصائص الريف وخصائص المدن.. فـهى أشبه بالضواحى.. أشـبه بالمعادى عندنا.. شوارع واسـعة هادئة.. وبيـوت متناثرة متـباعـدة لا يزيد الواحد منها على طابق واحد ولا يوجد فى الخرطوم التناقض الحاد الذى يستفز الأعصــاب الموجودة فى نيروبى ودار السلام بين سرايات الإنجليـز وأكـواخ الزنوج.. فـلا إنجـلتـرا هناك.. ولا زنوج... ولا أكواخ.. ولا سرايات.. وإنما فيلات على الأكـثر.. والطبقة المتوسطة هى الأغلبـية.. وسكان البلد قليلون.. والشـوارع تخلو من روادها بعـد العـاشرة مـســاءً.. وتشـعـر أن المدينة نامت.. وتمشى عـدة كيلومترات على شاطىء النيل فى جـو شاعرى ملهم ولا تعثر على

فتى وفتاة فى خالة انسجام. ولا تعثر على الأكثر إلا على شلل متناثرة تشرب البيرة فى مشارب على الشاطىء وكلها من الجنس الخشن..

شىء غير طبيعى.

والنتيجة أن الشباب يبحث عن السلوى فى البيوت المرخصة..

والسوداني وديع جداً ورقيق وعاطفي وهادئ وفى الأيام العشرة التى عشتها في الخرطوم لم أعثر على خناقة واحدة.

واللهجة السودانية تشبه لهجة الصعيد عندنا.. لكنها أسرع وتنطق فى خطف.. ربما للتدفق العاطفي في طبيعة السوداني..

وهذا الخطف السريع فى مقاطع الألفاظ هو السبب فى ظهور كلمات سودانية خاصة مثل :

هسع : هذه الساعة.

ماخسانى : لا يخصني.

ماكويس : مش كويس.

ما معقول : غير معقول.

بالله : والله.

جداد : دجاج.

كيفك : كيف حالك.

هناى : الحاجة اللي هنا..

الزعبور : الزوبعة الترابية.

وكل التعديلات التى دخلت على الكلمات هى تعديلات اختصار.. خطف للمقاطع المتعددة فى مقطع واحد.. فهى ليست لغة خاصة.. وإنما هى اللغة العادية منطوقة بسرعة.

وسرعة الكلام عند السودانى لا تدل على عجلة.. لأن السودانى بطبيعته غير متعجل.. ولا يوجد أكثر من الوقت فى الخرطوم.. وإنما السرعة فى الكلام دلالة عاطفة.

وهذه السرعة تظهر مرة أخرى فى الموسيقى السودانية.. المقاطع الموسيقية كلها سريعة نشطة..

ولا يوجد فى السودان غناء كلثومى ، ذلك الغناء المتمهل ذو المقاطع الطويلة البطيئة لا يوافق المزاج السودانى.. وأغنيات عبد الحليم وموسيقى عبد الوهاب تجد عندهم صدى أكثر.

والحر فى الخرطوم شديد القسوة.. وبرغم وجودى فى الخرطوم فى الأيام المفروض أنها أيام شتوية باردة.. فقد كانت الشمس تضرب رأسى بعنف كأنها تهوى عليها بقدوم.. وكنت أشعر بعد دقائق من المشى فى الشمس أن رأسى ورمت تماماً.. وأن عظام رأسى تؤلمنى.. ولم يكن شرب الماء يسعف.. فالجفاف شديد.. والماء يتبخر من اللسان والجلد بسرعة.. والصوت يبح ويصبح مشروخاً لكثرة ما يتبخر من اللعاب.

ومقاس الأكواب فى الخرطوم ثلاثة أضعاف مقاس الأكواب عندنا وزجاجة الكوكاكولا مقاسها دوبل لهذا السبب..

والزير يثلج الماء مثل الثلاجة.. لأن الماء يتبخر من على سطحه بسرعة هائلة وبالتالى يخفض درجة حرارته بسرعة أيضاً.

والجلد في الأيام الحارة يجف ويتشقق من كثرة الجفاف.. ويحتاج إلى الكريم والمطريات باستمرار..

والفرق بين الشمس والظل أكثر من عشر درجات.. لدرجة أن مجرد انتقالك نصف متر إلى الظل كأنك سافرت إلى الإسكندرية..

والفرق بين معدلات الحرارة في النهار والليل شاسع.. بدرجة أنك تلبس قميصا على اللحم بالنهار.. وبلوفر صوف ثقيل على بدلة كاملة بالليل..

والجو مع هذا محتمل فيما عدا مايو ويونيو ويوليو.

والذين جربوا حر أسيوط يمكنهم أن يتصوروا جو الخرطوم.. فالاثنان جوهما متشابه.

والحر والجفاف يؤديان إلى الاسترخاء الشديد والكسل..

وتكييف الهواء في مثل هذه الظروف يصبح كعملية الإسعاف والتنفس الصناعي لطريح يعاني الاختناق والإغماء..

والمنظر الذي يشاهد في أكثر من مكان في الخرطوم هو موائد البيرة والشلل التي تلتف حولها في دوائر وتكرع الزجاجة بعد الزجاجة.

ويبدو أن هذه العادة هي بديل طبيعي لعدم وجود الاختلاط ولقلة النوادي والسينمات وأماكن السهر ولشدة الجفاف.

وساكن الخرطوم في المتوسط أكثر ثقافة من ساكن القاهرة.. وأكثر عكوفاً على القراءة والاطلاع.. وأكثر جدية في قراءته..

والظاهر أن الشارع عندنا في القاهرة مسلي لدرجة أن الواحد

منا يحتاج إلى كثير من الضغط على نفسه ليغلق على روحه الباب ويفتح كتاباً.. وهو إذا استطاع أن يقاوم إغراء الشارع لن يستطيع مقاومة إغـراء التليفزيون.. أو الوقوف فى الشبـاك.. والنتيجة أن ينتهى اليوم بدون محصول ثقافى يذكر.

والتربية على القراءة ليست فى حياتنا كما فى حياة السودانى.

ونحن نعوض هذا النقص فى الاطلاع بالتهريج والنكتة الذكية.

والسودانى لا يهرج كالمصرى.. بل هو على العكس مهذب جداً. وإذا سألت أحد السودانيين خدمـة تسابق عشرة إلى تلبيتك.. ولو أننى بدأت أروى أسـماء الذين طوقـونى بمحبـتهم لملأت الأعـمدة الباقـية بالأسـماء.. ولكنت بعـد ذلك ظالماً للمجـهولين بلا أسـماء الكثـيرين بلا عـدد على طول الطريق الذيـن قدمـوا إلى المحبـة والمعونة بلا معرفة..

وفى أم درمان كـما فى الموسكى عندنا.. تلتـقى بهذه الصـفات الشعبية أكثر وأكثر كما تلتـقى بالأطعمة الشعبية الأصيلة فتشرب « الأبرية ».. و « الحلومر ».. وتأكـل « الكسرة والملاح ».. وتمشى فى شوارع مزدحمة بالصناعات المحلية كسوق العاج..

وقـد عشت أيامى العـشرة فـى الخرطوم أتعـرف على الحيـاة الاجتماعية فيـها.. وأبحث فى المكتبات عن كتب فى الجنوب.. وفى القبـائل الاستوائيـة تلك البقـاع التى خلفتهـا ورائى فى تنجانيـقا وكينيا لتعود لتشدنى مرة أخرى إلى رحالها فى السودان..

وكنت أتأهب إلى السفر فى شوق..

● ● ●

وحينما ركبت الباخرة النيلية نازلاً من الخرطوم إلى كوستى إلى غابات الجنوب وانقطعت صلتى مرة أخرى بالمدينة.. شعرت أنى عدت إلى الحياة التى عشقتها.

وكانت تمر أيام كاملة لا تقع عينى على إنسان. لا شىء سوى مسرح تعج فيه التماسيح.. وتتقاطر قطعان سيد قشطة لتسد طريق الباخرة.. وتسبح نباتات الهياسنت فى جزائر عائمة يجرفها التيار ويدفعها بشدة نحو الشمال.

وعلى الشاطئين كانت تُرى سهول على مدى البصر مملوءة بنباتات البردى وأعشاب السفانا وتمرح فيها الفيلة فى أسراب..

وفى الجو تزقزق العصافير الملونة وتغنى البلابل والكروانات، ويطن البعوض.. وفى الليل تلمع حشرات الحباحب المضيئة.. وتتألق لتجتذب البعوض ثم تنقض عليه وتأكله.

وكانت الغرفة على يمينى بها سائح ألمانى والغرفة على يسارى بها سائح أمريكى.. والغرفة فوقى بها عالم هولندى وعلى الدك مجموع من زنوج الشيلوك.. والدنكا.. والنوير..

وفى الممرات الضيقة كنت أسمع أكثر من عشر لهجات.. لا يستطيع أى منها أن يفهم الآخر.

ووجدت نفسى أطلق ذقنى.. وأمشى بلحيتى على سطح المركب دون أن أشعر بغرابة.. تماماً كما يسير الزنوج عراة على طبيعتهم حولى..

وكلما توغلت المركب جنوباً تخففت من قطعة من ثيابى.. حتى أصبحت فى النهاية أسير عارياً بالكالسون..

وكنت أتذكر الخرطوم.. أحياناً.. من هذا البعد الشاسع فتبدو لى بلداً غريباً فى شمالها القاهرة الباريسية بالجابونيز والديكولتيه والبلوزات. بحجم الكف وفى جنوبها زنوج بور والملكال بورق التوت وأحياناً عرايا بدون ورقة التوت وهى فى الوسط تخنق نفسها بالثوب وتغطى مواطئ الفتنة حتى المنكبين وتقيم سداً منيعاً بين نسائها ورجالها.. لا متنفس فيه لاختلاط.. أو عاطفة أو علاقة.. إلا برخصة.. وبطريقة غير مشروعة.

ولم أكن أفهم لهذا التشدد معنى..

كان يبدو لى تشدداً أقرب إلى التشنج منه إلى العفة..

وفى الناحية الأخرى كانت هناك قلة النسل التى تهدد كل هذه الثروات بالبوار.. تعداد من عشرة ملايين فى متاهات شاسعة.. الثمار تقع من على أشجارها وتتعفن دون أن تجد من يأكلها.. والأرض تنبت ما تشاء من عشب شيطانى دون أن تجد من يزرعها.. والمرأة فى الخرطوم حبيسة البيت خوفاً من أن تحمل فى الحرام..

أى حرام..

إن هذا العطل الذى تعيش فيه هو الحرام..

إن الثمار تصرخ منادية على من يقطفها..

والأرض الخلاء تصرخ منادية على من يعمرها ، وكل شبر فراغ يتضرع إلى كل أنثى لكى تحمل وتلد.

والخطة الاجتماعية كانت يجب أن تشجع الرغبة الطبيعية بين

الرجل والمرأة وكقوة دافعة للنسل وتمهد لها ظروف الاختلاط الطبيعية لتؤتى أقصى ثمارها بالتزاوج.

إن المرأة فى قبيلة الجيكويو التى تذهب بفطرتها السليمة إلى زوجها بعد سنة من الزواج لتحرضه على الزواج بأخرى ليزداد عدد الأولاد فى العائلة منطقها أكثر سلامة من كل هذا التعقيد الذى جلبه التمدن على الحياة الاجتماعية فى الشمال..

إن حياة الغابة البسيطة المباشرة تبدو لى مفهومة أكثر..

إن هذه الإرادة الأنثوية التى تواجه بها المرأة عوامل الانقراض والفناء التى تعمل مناجلها فى ألوف الزنوج حصداً.. وتبقى على القبيلة برغم كل شىء.. هى الفضيلة ذاتها..

ولو أن بنت الجنوب عاشت فى التزمت الذى تعيش فيه بنت الشمال لانقرض جنسها كله وامّحى من الخريطة..

إنه إلهام الطبيعة.. يضع ناموس الأخلاق ليكون ناموس بقاء.. قبل أن يكون مجموعة تعاليم نظرية.

الطبيعة تنادى أهل الشمال ليتخففوا قليلاً.

بعض الحرية. وبعض البحبحة.. ومزيد من الاختلاط. ومزيد من الزواج..

• • •

مضت أيام اثنتا عشر منذ أقلعت الباخرة من كوستى..

ومازالت الباخرة تسير فى منعطفات لا نهائية.

ومشـيت بأصـبعى على الخـريطة.. على خط السيـر الطويل.. الخرطوم.. كوستى.. الملكال.. بور.. جوبا.. ياى.. مريدى.. يامبيو.. أنزارا.

ووضعت دائرة حول يامبيو.

هناك قلب منطقة « الزاندى ».

و« الزاندى » هى القبـيلة التى أطلق عليهـا الجغرافيـون العرب نيام نيام..

وأغمضت عينى..

إن قلبى هناك.. فى أعماق الغابة..

النيام نيام..

ما ترويه الكتب عن قبيلة الزاندى « نيام.. نيام » غير الحقيقة التى رأيتها على الطبيعة لأن معظم هذه الكتب قديمة أحدثها طبع منذ ثلاثين عاماً (دراسة سليجمان عن قبائل السودان ١٩٣٢) ومع ذلك.. فهذه الدراسة هامة.. لأنها تعطى صورة دقيقة للماضى..

والزاندى قبيلة كبيرة تزيد على المليون.. أفرادها منتشرون فى جنوب السودان فى منطقة مريدى.. يامبيو.. إنزارا.. وفى الكونغو البلجيكية.. وفى السودان الفرنسية.. وفى أوغندا..

والحدود الجغرافية بين هذه الدول لا تشكل حدوداً بالنسبة للزاندى.. فالعائلة الواحدة من الزاندى تجد فيها الأب بالسودان والابن بالكونغو والخال بالسودان الفرنسي..

وقبيلة الزاندى قبيلة محاربة غازية أفرادها أقوياء أشداء.. على ذكاء نسبى أعلى من بقية القبائل.

والذكاء قد خلف آثاره فى تاريخ هذه القبيلة العجيب.. فقد انفردت بين جميع القبائل بنظام أرستقراطى للحكم.. يتولى فيه

الصفوة « الأوفونجارا » حكم الأغلبية..

وقد خصت طبقة الأوفونجارا نفسها بامتيازات عديدة.. فهى تتوارث الحكم بين أفرادها.. وهى تعفى نفسها من القيود المتبعة فى الزواج فلا تتحرج من زواج المحارم.. الأب يتزوج ابنته.. والابن يتزوج أمه.. والأخ يتزوج أخته.. وإذا راق للأوفونجارا أى عدد من نساء الشعب فإنه يتزوج به.

والملك بادوى آخر ملوك الأوفونجارا كانت له حاشية من الحريم تمتد أكواخها مسافة سبعة كيلومترات..

وفى سبيل حماية هذا الجيش الهائل من الحريم كان الملك يعاقب بالخصى وتقطيع الأطراف والإعدام كل من يتجرأ من أفراد الشعب على إغواء حريمه..

وكانت نتيجة هذا الحصار المضروب حول الحريم.. عدم قدرة الملك على إشباع رغبات هذه الحاشية النسوية.. أن نشأت عادة السحاق والشذوذ الجنسى بين النساء.. واتخذت القبيلة التى استأثر الملوك بأكثر نسائها ، من الصبيان والولدان زوجات..

وظلت علاقة الرجال بالأولاد مباحة ومشروعة حتى ألغتها الحكومات المحلية..

والزاندى يؤمنون بإله يسمونه « مبولى » وكل شىء فى الدنيا يتحرك بإرادة « مبولى ».. وهو يسلط الصواعق على الأشرار من البشر... ويكافئ الصالحين منهم..

والزاندى لهم طقوس خاصة حينما يصلون « لمبولى ».. فهم يملأون أشداقهم بالماء ثم ينفثون ما بها من ماء على الأرض وهم يغمغمون.

« مبولى » إلهنا.. إننا لم نسرق من أحد... ولم نأخذ نساء جيراننا.. ولم نفعل شيئاً يغضبك.. « مبولى » إذا كنت ترغب فى موتنا فليكن موتنا فى يوم آخر غير هذا اليوم.

وهم مثل سائر القبائل يؤمنون بأرواح الموتى.. « أتورو ».. وقدرتها على إنفاذهم ومعونتهم.. ويقدمون لها القرابين من الحبوب والفواكه والدجاج..

ويعتقد الزاندى أنه عند اتصال الأب بالأم يتحد « بيزيمو » من الأب مع « بيزيمو » من الأم. ويتكون من العنصرين الطفل الوليد.. وحينما يكبر الطفل ثم يجىء دوره ويموت فإن « بيزيمو » تتحول إلى « أتورو »..

وتخرج الروح « أتورو » لتسكن الجبال وأعالى الجداول.. ولا تترك هذه القمم العالية إلا لتذهب فى زيارة الأقارب بين حين وآخر.. أما الجثة فتتعفن جميعها فيما عدا اليد اليمنى للميت فإنها تتحول إلى الحيوان المقدس « الطوطم » الذى انحدرت منه العائلة.. وبهذا فإنها تصبح فهداً أو أسداً أو تمساحاً حسب نوع الحيوان المقدس.

وحينما يموت الميت فإنه يغسل ويلف فى ثوب من القماش وتغنى النسوة أغانى الموت.. وتحفر حفرة يوضع فيها الجسد على جنبه الأيمن مع ثنى رجليه وذراعيه وتوضع معه أسلحته..

وفى أثناء حمله إلى مقره الأخير يكشف الحمالون وجهه لتناديه زوجته باسمه.. وتودعه بنظرة أخيرة..

ويعتقد الزاندى أن روح الميت لا تهدأ إلا إذا انتقم أهله من

قاتله.. وكل وفـاة عندهم ليست وفاة طبيـعية. وإنما سحـر قام به « المانجو » الساحر الأسود.

وهم لهذا يأخـذون عينة من ثوب الميت وقـصاصـة من أظافره وخصلة مـن شعره.. ومـفصل من إصـبعه الخنصـر ويقدمـونها لساحـر « الباجـبودومـا ».. فيأخـذها الساحـر ويحرقـها ويضع رمادها فـى صفارة سـحرية. يصـفر بهـا وهو يتلو اللعنات على القاتل وينفخ بها فى الجهات الأربع التى تهب منها الريح..

ثم يـدفـن الصفارة فى جـذع شجـرة ومـعهـا قليـل من عقار « البـاجبودومـا » السحـرى ثم يعطى صـفارة أخرى إلـى أقرب أقرباء الميت لينفخ فيها كل يوم وهو يلعن القـاتل ليعجل بالانتقام منه.

ويلى ذلك فترة انتظار قـلقة.. يصفر فيـها قريب الميت كل يوم ويلعن القاتل وينتظر موته بين لحظة وأخرى..

حتى إذا سـمع بوفاة فى القرية سارع إلى العـراف يسـأله عن المتوفى وهل يكون هو القاتل..

ويجرى العراف اسـتخاراته.. ويؤكد له أن المتـوفى هو القاتل.. وأن « الباجبودوما » أحدث أثره.. والانتقام نفذ..

وساعـتها فقط يـفك أهل الميت الحداد ويقيـمون وليمة فـاخرة يوزعون فيها الخمر على أقارب الميت وأصدقائه..

ويقوم أكـبر الموجودين ليلقـى كلمة.. ويتناول فرعـاً من فروع شجرة البومـبيلى المقدسة يغمسه فى الخـمر ثم يرش به على قبر الميت وهو يتمتم.

- إيه يا روح أمى العزيزة.. لماذا أنت غير راضية عنى.. ولماذا لا ترضى عنى سائر الأرواح.. لقد أديت واجبى كاملاً.. وقدمت الهدايا من الحراب على روحك.. وصنعت لك مدفناً مريحاً غطيته بالحصى.. وها أنا ذا مونجورو ابنك.. أشرب الخمر وأسكبها على ثراك... وأقف لتحيتك وفى يدى فروع البومبيلى المقدسة.. إيه ياروح أمى.. إنما دموعنا هى هذه الخمر.. كونى راضية عنا.. وجففى سحب الأمطار.. حتى نستطيع أن نرقص على الأرض الجافة ونحتفل بك..

وفى نهاية كلمته يجرع جرعة من قصعة الخمر ثم يدلق الباقى على المقبرة لتشرب معه الأرواح.. ثم يقوم من بعده آخر ليلقى كلمة ثانية.. وثالثة. ثم يتقدم إخوة الميت وهم يلوحون بأعواد البومبيلى ويسكبون الخمر على القبر..

ثم يلقى كل واحد بحصاة فوق القبر حتى ترتفع كومة من الحصى فوق الحفرة.. ويعود الكل إلى بيوتهم.

وفى حالة موت الحاكم فإنه يدفن سراً.. وفى الماضى كانت تدفن معه أحب زوجاته وتكسر رجلاها وتوضع جثة الميت على رجليها المكسورتين.. ويملأ القبر بكافة أنواع الأسلحة ثم يهال عليه التراب.

والزاندى يعتقدون أن كل مصيبة تحدث لهم سببها السحر « مانجو ». حينما تموت الماشية فالسبب هو المانجو.. حينما يمرض رب البيت فالسبب هو المانجو.. حينما تتلف الزراعة فالسبب المانجو.. حينما تتعسر الولادة مانجو.. حينما لا يكون

الصيد موفقاً.. مانجو.. وكل وفاة عندهم ليست وفاة طبيعية وإنما مانجو.

وكانوا فى الماضى يعاقبون المانجو بالإعدام.

كانوا يذهبون لاستشارة العراف.. فيجلب العراف دجاجة يسقيها من مادة البنجو المخدرة.. ثم يقف على رأسها يتلو تعاويذه وهو يصيح بين لحظة وأخرى.. إذا كان فلان ابن فلان هو المانجو فلتسقطى ميتة.

فإذا سقطت ميتة.. فإن موتها يكون علامة صدق الاتهام. ويذهب الاثنان إلى الحاكم ويعيدا أمامه الاختبار. فإذا جاءت النتيجة مؤكدة للاتهام.. فإن الشاكى يصبح فى حل من قتل الساحر.. ولكن الخلاف كان فى العادة ينتهى بدفع غرامة عشرين حربة لأهل الميت.

أما إذا كان المجنى عليه من طبقة الأوفونجارا فإنهم كانوا يجلبون المتهم بشخصه للعراف ليسقيه شراب البنجو بدلا من أن يسقيه للدجاجة.. وكان يطلب من المتهم وهو فى سكرة المخدر أن يجمع عدداً من أعواد البوص من على الأرض.. فى حين تدق الطبول من حوله طول الوقت فإذا ترنح وسقط على الأرض فإن هذا يكون دلالة على أنه المانجو.. وكان يقتل لساعته.

ومثل هذه الأحكام والطقوس لم تعد تنفذ الآن بعد تدخل السلطات المدنية.. وأصبح يكتفى بالرد على السحر بسحر مثله (الباجبودوما).

وهناك فئة أخرى من المطببين السحرة اسمهم « الأبنزا »

يعالجون المرضى بالتدليك ويداوون الجسد بالعقاقير والأعشاب.. ويقضون نهارهم وليلهم فى الكهوف يسحقون الأعشاب ويطهونها بالزيت والبذور ويتلون عليها التعاويذ.

ونظراً لمطاردة الحكومات المدنية المختلفة لهذه الفئات من السحرة والمشعوذين.. فإنهم أصبحوا يتجمعون الآن فى جمعيات سرية.

وأكبر هذه الجمعيات جمعية « مانى » وأعضاؤها يزيدون على الألوف وتنظيمها يشبه تنظيم الجمعيات الماسونية.. فأعضاؤها لهم إشارات خاصة سرية للتحية والسلام.. وهم يجتمعون فى محافل.. وأسرار الجمعية العليا لا يعرفها إلا « الأساتذة » رؤساء الفروع والشعب المختلفة.

وهناك إقبال شديد على هذه الجمعية فى الكونغو نظراً للضغط الشديد الذى يلقاه الوطنيون من الحكومة البلجيكية.

• • •

والانحلال الجنسى والعائلى بين طبقة « الأوفونجارا » لا يقابله انحلال مماثل بين بقية أفراد الزاندى.

ونظام العائلة فى العادة يخضع لتقاليد صارمة.. فالأخ إذا رأى أخته عارية وهى تستحم بدون الورقة التى تضعها على عورتها فإنه يقدم لها هدية تعوضها عن حيائها الذى خدشه.. والأخوات الأولاد والبنات ينامون فى أكواخ منفصلة.

والأخ الأكبر يقوم مقام الأب فى رعاية الأولاد.. وهو فى العادة يقوم بدور الأب الروحى فى كل المناسبات الدينية.. وهو يتقاضى

النصيب الأكبر من المهر الذى يدفع لأخته.

ورباط الدم بين الإخوة عامل هام من عوامل التعاطف بينهم..

وأحياناً يلجأ أفراد القبيلة إلى توثيق صداقاتهم بخلق رابطة دم عن طريق مراسيم خاصة.. فيجلس كل اثنين منهم الواحد أمام الآخر ثم يقوم أحدهما بجرح ذراعه ويغمس فى الجرح فرعاً من فروع شجرة البانجا. ثم يناوله لزميله.. فيغمسه هذا فى الملح ثم يمصه ويمضغه فى حين يفتل الآخر حبلاً من ألياف « الداكوا » ويمضى يفتله وطرف منه معقود فى شعر صديقه وهو يتمتم مخاطباً دمه الذى أصبح فى معدة صديقه.. وبهذا يتم رباط الدم بين الاثنين.. ويصبح عهداً.

ويقضى رباط الدم الذى ينشأ بينهما أن يتعاونا فى شر الحياة وخيرها. وإذا خان أحدهما العهد فإن اللعنة تحل عليه ويموت.

والخطوبة فى الزاندى تبدأ منذ الميلاد.. حينما تولد الطفلة. يتسابق أولاد القرية إلى خطبتها.. ويقدم كل منهم باقة من فروع السيسيلى إلى الأم.. فإذا لم يعجب الأم الخطيب فإنها تكنس فروع السيسيلى خارج الكوخ.. وتنتظر عرضاً آخر يعجبها.. فإذا أعجبها الخطيب فإن عليه أن يسارع بتقديم شبكة للطفلة عبارة عن إسورة من الخرز.. ومنذ تلك اللحظة عليه أن يضع نفسه فى خدمة أهل العروس فيعمل فى حقولهم ويفلح لهم الأرض ويرويها وعليه أن يتقدم بهدية من وقت لآخر.. حتى إذا بلغت العروس عامها السادس ذهب يستشير العراف ويسأله.. هل يمضى فى هذا الزواج.. أم ينصرف عنه.. فإذا أشار عليه العراف

بالمضى.. فـإنه يذهب إلى بيت العروس ومـعه هدية ثـلاث حراب يعطيها لوالد عـروسه كقسط أول من المهر.. وكلـما تقدمت الطفلة فى العـمر أخذتهـا أمهـا إلى أهل العريس حـيث تبقى هـناك مدداً متفاوتة أقـصاها شهر تتعلم فيها فـنون الطهى وخدمة البيت على يد حماتها.. وفى العادة تأخذ أم العروس معها هدايا.. من الحبوب والفواكـه والدجاج.. وفى هذه الزيارات يـنفرد الخطيب بعـروسه وينام معها ويغازلها.. ولكن لا يدخل بها..

وحينما تبلغ أقساط المهر المدفوعة عشر حراب.. تكون العروس فى العـادة قد بلغت السـادسة عشـرة.. فتنتـقل إلى بيت زوجـها لتتـسلم مقاليد بيـتها حيـث يقام لها كوخـها الخاص ويجهـز لها موقدها من قوالب الحجارة ويوضـع فوقه إناء الطهى..

وتستمر الحياة الزوجية.. ويستمر الزوج فى دفع أقساط المهر من الحراب.. وتتـوقف مواظبتـه فى الدفع على نشاط زوجـته فى الطهى وعلى حسن خدمتها وأخلاقها.. وهو فى العادة يتوقف عن الدفع ويطلقهـا إذا كانت عقيـماً.. ويسترد المهـر الذى دفعه.. وإذا كانت كل خلفتها من الذكور فإنه يسترد نصف المهر.

وإذا ماتت دون أن تنجب فعلى أهلها أن يردوا المهر..

وفى إمكان العريس أن يتزوج بدون مهـر وذلك بأن يقدم أخته لأهل العروس فى مقابل العروس التى أخذها..

وحينمـا يموت الزوج فـإن زوجتـه تصبح من حق أخـيه.. أو أولاده من أى زوجة أخرى فتنتقل إلى فراش الأخ.. أو الابن..

والتـقـاليد تحـمى العـلاقـة الزوجـية عند شـعـوب الزاندى..

فـالاتصـال الجـنسى قـبل الزواج نادر لأن الخطوبـة والعـلاقـة الزوجية تبدأ فى وقت مبكر جداً..

والخيانة الزوجـية عقوبتهـا صـارمة وحشية.. فـالزوجة كانت تجلد وتشرط بالسكاكين.. والعشيق تقطع يده وأذنه وشفته العليا وخصيته..

والحامل فى الحرام تلد فى الغابة ولا تولدها الداية..

وأمثال هذه العقوبات منعتها الحكومات المحلية الآن..

ومن الأمور العادية الآن أن تهرب الزوجة مع حـبيبها ويكتفى الزوج بالحصول على الأولاد.. واسترداد المهر..

والطهور لم يكن متـبعاً فى الزاندى.. ولكنه الآن عادة متـبعة.. وهم يطاهرون الأولاد بين سن التاسعة والرابعة عشرة..

والزاندى كانت تعـتمد فى حـياتها على الصـيد.. وعلى السطو على القبائل الأخرى وإخضاعها.

وكـانت العادة فى أثناء الحـروب أن تؤكل اللحـوم البشـرية.. لكثرة القتلى الذين يتساقطون فى الميدان..

لكن هذه العادة بطلت منذ أكثر من مائة عام..

وأصبح الزاندى يعتمدون على الزراعة فى معاشهم..

ولم ينجح الـزاندى فى أن يكونوا رعـاة.. بسـبـب ذبابة تسى تسى.. ومرض النوم الذى كـان يقضى على الماشيـة وعلى الرعاة أولاً بأول.

لكن التـاريخ الطويل من الغـزوات والحروب.. كـانت نتيـجتـه

انتشار لغة الزاندى.. على لسان عدد كبير من القبائل.

وهى لغة مفرداتها قليلة وسهلة.

والأب فى هذه اللغة اسمه بوبا.. والأم نينا.. والجدة تيتا..

وهى ألفاظ مألوفة لآذاننا..

ومن الأشياء التى خلفها الاستعمار الإنجليزى عدد من القواميس والدراسات الوافية لهذه اللغة.. وقد ظن الإنجليز أنهم بدراستهم للزاندى سوف يستطيعون النفاذ إلى عدد كبير من القبائل الأخرى.. عن طريق اللغة المشتركة.

وكعادة الاستعمار وضع فى مقدمة جيوشه.. مدفعية من المبشرين.. وكتائب كاملة من الإرساليات.. تعلم الإنجيل بلغة الزاندى.. وتعلم معه الأشياء الأخرى التى يريدها السادة الإنجليز..

ومن صراع المذاهب.. فى الغابة.

ومن صدام الحياة والموت بين المستعمرين والوطنيين..

ومن خليط الحضارة الجديدة الوافدة.. والبداوة الأولى.. نشأ من النيام نيام.. شىء جديد.. غير النيام نيام.. وغير الزاندى.. الذى فى الكتب.. وهو الواقع الجديد الموجود حالياً.

وحكايته طويلة..

كان الزاندى يتبادلون فيما بينهم عملة بدائية.. هى الحديد. كانوا يستخرجون الحديد ويستخلصونه من خاماته ويصهرونه ويشكلونه فى أسلحة مختلفة.. وكانت الصعوبات البالغة التى يعانونها فى الحصول عليه تجعل منه شيئاً نادراً.. غالياً مثل الذهب.

ثم جاء الاستعمار.. وغمر الإنجليز الأسواق بالمصنوعات الحديدية.. عربات من الحديد وقضبان من الحديد.. ومواسير من الحديد.. وأسلاك من حديد.. ومعدات هائلة كلها حديد فى حديد..

وأصبح الحديد خردة.. ملقاة على الأرض فى كل مكان.

وكانت نتيجة هذا التضخم الهائل فى العملة الحديدية أن هبط سعرها للتراب.. ثم أفلست تماماً. وبالتالى أفلست الطبقات الحاكمة « الأوفونجارا » التى كانت تقتنيها.

ثم حطم الاستعمار البقية الباقية من هذه الطبقة بتحطيم امتيازاتها.. فأصدرت السلطات فى عام ١٩١٥ وثيقة المرأة التى حرمت تحريماً باتاً التزاوج الداخلى بين الأخوات فى طبقة « الأوفونجارا » وحرمت تبادل الزوجات.. وتوريث الزوجة لأخ الزوج.. وزواج الطفلة.

وأصدرت قوانين أخرى بعدم قتل الزوجة التى تخون زوجها وبمنع قطع أذن الزانى أو خصيته أو أطرافه كما كان متبعاً.

وبهذا فقدت الطبقة الحاكمة سلطاتها المادية وسلطاتها المعنوية فى وقت واحد.. وانهارت من أساسها.

وسادت مرحلة من التسامح الجنسى أدت إلى الانحلال وانتشار الأمراض التناسلية.. وأصبحت معظم القضايا التى تعرض على « الكاليكو » هى قضايا خيانات زوجية. ويسمونها عندهم قضايا « كسر البيت ».

وانخفضت المواليد بشكل ذريع.. وأصبحت رؤية الأطفال ظاهرة نادرة.. نتيجة الأمراض التى انتشرت بدون رعاية طبية..

ونتيجة الانهيار الكامل والفجائى فى القيم المادية والمعنوية ونتيجة التعب.. واليأس من كل شىء..

وفى السنوات التى أعقبت تلك الفترة.. فى أثناء الحكم السودانى المحلى. كانت القضية التى تشغل البال.. هى تحسين حال هذه الجماعات البدائية التى أشرفت على الانقراض.. وكان الأمر متروكاً فى البداية للمتحمسين.. والمبشرين بالمسيحية. والمبشرين بالإسلام.. الذين ظنوا أن الحل هو الإصلاح الدينى.

وللحقيقة والتاريخ.. لم تفعل محاولات الاثنين شيئاً يذكر بالنسبة لرفع مستوى هذه القبائل.. وانتشالها حضارياً.

والذى حدث أن المبشرين المسيحيين كانوا أدوات طيعة فى يد المستعمرين.. ولم يبشروا بالمحبة بقدر ما بشروا بالكراهية وبثوا الفرقة والانفصال بين جنوب السودان وشماله..

وكانت خطة الاستعمار هى ضم جنوب السودان إلى أوغندا وكينيا وتنجانيقا.. إلى العزبة.. والأبعديةالتى يمرحون فى خيراتها..

وكانت آخر محاولة من هذا النوع هى التى قام بها القس سترانينو الذى ذهب إلى الفاتيكان وتقدم بشكوى إلى البابا.. وبشكوى مماثلة إلى الأمم المتحدة مطالباً بفصل جنوب السودان عن شماله بحجة الاضطهاد الدينى.

وكانت ثمرة هذا التبشير هى المذابح التى حدثت فى الجنوب منذ سنوات وراح ضحيتها الكثير من أبناء السودان.

وللحقيقة والتاريخ.. لم يفعل المبشر الإسلامى شيئاً يذكر..

وكان هم الشيخ الذى يبعث إلى هذه المجاهل الجنوبية.. أن يسأل عن مرتبه.. ويطمئن أولاً على تسهيلات السكن والأكل والشرب والتحويش التى ستتوفر له. وأهم من هذا. لم تكن المشكلة التى تعيش فيها هذه القبائل مشكلة دينية فقط وإنما كانت أكبر بكثير..

كانت هذه القبائل تعيش فى حالة انفصال تاريخى كامل.

وكان لابد أن تتحقق ظروف تاريخية متقدمة لتقوم بينها حضارة متقدمة.

وكانت الخطة هذه المرة هى إحداث انقلاب اقتصادى فى المنطقة وقلب وسائل الإنتاج وعلاقات الإنتاج للوصول إلى تغيير المنطقة حضارياً.. وتحويلها من حضارة غابة إلى حضارة مدينة..

كان التبشير المطلوب هو تبشير اقتصادى ودينى معاً.

• • •

وقامت فكرة المشروع الاقتصادى المعروف « بمشروع الزاندى » على زراعة محاصيل نقدية مثل القطن والسمسم وقصبد السكر.. وتصنيع هذه المحصولات بإنشاء محالج ومناسج ومعاصر.. وصناعة النسيج والزيوت والصابون والسكر.. ثم تسويق هذه المصنوعات بإقامة متاجر وأسواق محلية وتصدير الفائض إلى كافة أرجاء السودان.

وأشرفت الحكومة على المشروع وقدمت المعونة الزراعية والخدمات الصحية وأنشأت مدينة صناعية كاملة فى « أنزارا » ضمت المناسج والمحالج ومعاصر الزيوت ومناشير الخشب.. ومدت الخطوط التليفونية من أنزارا إلى ميناء جوبا..

وبدأ تنفيذ المشروع منذ عشرين سنة.. وصادف عقبات هائلة..

• • •

وكانت أول عقبة... هى مشكلة الإسكان.

والزاندى لا يعرفون فى سكناهم نظام البلدة.

كل أسرة تسكن وحدها. وبين كل أسرة والثانية كيلومتر من الأرض الفضاء أو أكثر.. والأرض التى تحيط بالأسرة هى ملكها عرفاً بما فيها من مزروعات وحيوانات للصيد وأسماك « وانقونقو ».

والأنقونقو حشرات مثل النحل يصطادها الزاندى ويأكلونها مشوية وأحياناً نيئة.. ويستخرجون منها نوعاً من الزيت..

والأسرة تغير سكنها فى العادة بعد انتهاء موسم الزراعة فتنتقل إلى مكان آخر وتنتهى بذلك ملكيتها لكل الأراضى التى كانت تزرعها وتصبح من حق أى أسرة أخرى تسكن مكانها..

ولهذا السبب تعتبر قبائل الزاندى قبائل رحل ، بالرغم من اعتمادها على الزراعة.. وتعتبر الملكية بمعناها الرأسمالى غير معروفة بينها..

والملكية فى هذه القبائل هى ملكية عمل.. « الأرض لمن يفلحها » وليست ملكية مخصصة « الأرض لمن يملكها ».

ونتيجة لهذا التخلخل السكنى أصبح من الصعب توفير الخدمات المدنية لهذه القبائل لأنها تسكن متفرقة متباعدة فى أسر مبعثرة.. وعلى من يريد أن يوفر لها خدمة أن يمد كل أسرة بطبيب خاص وأجزخانة ومعاون زراعى وطلمبة مياه ووابور

نور.. وهذا مستحيل.

وكان لابد أن تبدأ الحكومة من البداية.. أن تجمع هذه الأسرات المتباعدة فى قرى.. ثم تركز الخدمات فى هذه القرى. وكان إقناع هذه الأسر بالتساكن معاً.. عملية غاية فى الصعوبة..

وفشلت مشاريع الإسكان أكثر من مرة.

بين عامى ١٩٢١ ، ١٩٢٦ أُخرج الأهالى من أكواخهم التقليدية وأُسكنوا جماعات فى قرى متجاورة لمراقبة مرضى النوم بينهم.. فانتشر بينهم السخط وهجروا أراضيهم وزراعاتهم وهربوا إلى الغابة.

وأُعيدوا مرة أخرى إلى تجمعات سكنية على الطريق العام فلم تثمر هذه المحاولة الثانية سوى انتشار الفوضى والذعر والأمراض التناسلية. وآخر محاولة منذ سنوات كانت إنشاء قرى نموذجية فى ضواحى يامبيو حاول فيها المشروع أن يلتزم بالذوق المحلى لأهل البلاد.. فأنشأ القرية على شكل هلال ونظم استعمال الحقول بطريقة تتفق مع نظام الزاندى فى الزراعة.. وأعطى كل أسرة أربعين فداناً لتزرعها.. وهو إغراء يسيل له لعاب أى أسرة من فلاحينا.. ولكن بالنسبة للزاندى.. لم يكن لهذا الإغراء أى قيمة فالزاندى لا يعرفون هذا النوع من الملكية ولا يهتمون بها.. ولا يفهمون معنى لأن يكدس الإنسان ملكياته ويراكمها.. ولا أن يطلب من الدنيا أكثر من حاجته.

لا يفهم الزاندى معنى لأن يزرعوا محصولاً مثل القطن.. لا يأكلونه ولا يشربونه.. لمجرد أنه محصول يباع وله قيمة نقدية..

وما حاجتهم إلى النقد ؟.

وكانوا ينظرون إلى الأوراق النقدية التى يقبضونها باحتقار، ولم يكونوا يفهمون أن هذه الأوراق النقدية لها قدرة على التبادل المطلق.. وأنها يمكن أن تتحول إلى أى شىء يرغبون فى شرائه من السوق..

وظلت زراعة هذا المحصول العجيب.. وجمعه وحمله مسافات طويلة إلى محطات الاستلام ، فى نظرهم.. نوعاً من السخرة.

وكانوا يعبرون عن هذا بقولهم. « جا أيرانجى سونجى » هذا عمل من أعمال الحكومة.

ولجأت السلطات إلى فرض « الضريبة الشخصية » على الزاندى واشترطت دفعها نقداً لكى ترغم القبائل على السعى وراء العملة النقدية وكانت عقوبة التخلف عن هذه الضريبة هى السجن الطويل.. ولكن النتيجة كانت عكسية.. فقد أقبل الزاندى على السجون إقبالاً شديداً إذ وجدوا فيها كل ما كانوا يفتقدونه. وجدوا وجبات الأكل المنتظمة. والأمان فى رحاب الحكومة.

وكان الواحد منهم إذا انتهت فترة سجنه يركبه حزن شديد ويلح فى الرجاء ليبقى فى السجن.

وألغيت الضريبة لعدم جدواها.

وظهرت مشكلة أخرى خطيرة.. هى عدم احترام العامل البدائى للمواعيد وكان العمال يتغيبون عن المصانع بالعشرات.. بالساعات وبالأيام..

وخصصت منحة شهرية كجائزة تمنح لمن يواظب عشرين يوماً بلا انقطاع عن العمل.

ولكن العامل لم يكن يفهم الزمن كما نفهمه.. لم يكن يعرف من دنياه إلا الليل والنهار.. أما الساعة.. والدقيقة.. والثانية.. فهى أشياء لا يستطيع أن يتصورها وماذا تعنى ساعة.. أو دقيقة.. أو ثانية. وماذا تعنى العجلة.. والسرعة.. ولماذا السرعة.. ولماذا العجلة !؟

ومن ناحية أخرى كان إغراء المال فى المصنع لا يعوض هذا العامل عن سعادة أخرى أشد إغراءً هى سعادة الانطلاق فى الغابة للصيد والرقص والغناء.

ولهذا كان العمال يتركون المصانع جماعات فى مواسم الصيد للانطلاق فى الغابة.. ويتركون أجورهم ويفضلون عليها لذائذ المرح والرقص والصيد.

وثارت مشكلة أخرى هى استخدام الحيوان فى النقل.

والزاندى لا يعرفون الحيوان إلا صيداً يؤكل.. أو وحشاً مفترساً لا يؤمن له جانب.. ولا عهد لهم باستئناس الحيوان.

وهم يحكون هناك حكاية سلطان الدنكا الذى أهدى سلطان الزاندى بقرة حلوباً فكان السلطان يأمر بحلب لبنها فى حفرة ويواريه التراب.

وقد ثارت مشكلة استئناس الحيوان من جديد حينما فكر المشرفون على المشروع فى استخدام الحمير للنقل.. وجلبوا أربعة حمير من « كابويتا » تكلف نقلها خمسين جنيها.. وكان يوم قدومها إلى أنزارا يوماً رهيباً.. فقد ساد الذعر بين الزاندى وفروا

هاربين من الحمير وهم الذين يقابلون الأسود ويصارعونها وجهاً لوجه.. وبعد محاولات متكررة لإقناعهم بدأوا يقتربون منها على حذر.. وكانوا يزغرون إليها بجانب عيونهم وهى ترعى فى الحقل.

وحينما بدأ استخدام الحمير.. اتضح أن هناك عقبة ثانية.. فالحمير التى شدت إلى العربات رفضت أن تتحرك ووقفت صامتة.. ولم يستطيع أحد أن يعلو ظهرها.. فما يكاد أحد يعلوها حتى تُجَنْدله على الأرض.

وهكذا وقف المسئولون حائرين.. بين إقناع الحمير وإقناع الآدميين.

عقبات كثيرة مثل هذه العقبات وغيرها.. اعترضت المشروع.

ولكن المشروع استمر.

وعلى مدى عشرين عاماً. وبرغم العقبات.. استطاع أن يحقق الكثير لأن إرادة ألوف العاملين كانت تسنده.

الحكام العسكريون فى مناطق الجنوب.. كانوا أكثر من مجرد رجال عسكريين. كانوا رواداً وطليعة. وكانوا يكافحون فى مقدمة الصف لتغيير المنطقة.

وباحثون ومفكرون من السودان. هاجروا إلى الجنوب ووضعوا الدراسات والمؤلفات والكتب ومن أهم هذه الكتب – كتاب « التغير الحضارى للدكتور محيى الدين صابر » ويعتبر مرجعا من أهم المراجع فى تطور المنطقة.

وبالعمل الدائب.. وبالصبر.. وبالإصرار.. حدثت المعجزة..

وتغير وجه الغابة.

وحينما تتجول الآن بعينيك فى هذه المجاهل.. فإنك تكتشف أن أشياء كثيرة قد تغيرت.

اختفى العرى من الأكواخ.

وأغلب الزنديات الآن يلبسن الثوب كما تفعل الشماليات تماما.

وانتشرت اللغة العربية انتشاراً واضحاً.. وأصبحت لغة يومية لمعظم الذين يعيشون فى التجمعات المدنية.

وارتفع مستوى حياة الزاندى ارتفاعاً ملموساً فى مأكلهم وملبسهم. وأقبلوا على شراء سلع عصرية جديدة. مثل البسكليت. والبطاريات.

ودخلت زراعات نقدية جديدة كالبن والأرز والشاى والدخان. وبعض الصناعات الجديدة كتعليب الفواكه.

وبلغ المزروع من الأرض فى المشروع ٦٠ ألف فدان.. يقوم المشروع بتصنيع ثلثيها.

وتضاعف عدد المدارس فى الجنوب فأصبحت أكثر من أمثالها فى الشمال.

واشترك الزاندى كغيرهم من الشعب السودانى فى الانتخابات العامة لأول برلمان سودانى عام ١٩٥٣.

وأضرب عمال الزاندى عام ١٩٤٥ مطالبين برفع أجورهم.

وتغير نظام الملكية القديم.. ودخلت فكرة التملك الفردى المخصص.

الغابة تحولت إلى مدينة.

العلم دخل الأكواخ.

المداخن الرشيقة أصبحت أطول قامة من الأشجار الباسقة..

الصناعة حولت الفواكه إلى علب وكومبوت ومربى.. وحولت الأشجار إلى طقاطيق.. والتماسيح إلى شنط سيدات.. والنمور إلى شباشب..

والسود الذين كانوا عرايا لبسوا بنطلونات.

تقدم كبير.

لقد أعطت المدنية الكثير لهؤلاء البدائيين.

ومع هذا.

لو أننا نظرنا إلى هذه الأمور بدون التحيز لمقاييسنا ومدنيتنا.. ولو أخذنا المسائل بشكل أكثر حياداً.. لوجدنا أن هذا التقدم كان له ثمن. وأن هؤلاء البدائيين قد دفعوا الكثير فى مقابل هذه الخرقة من القماش التى وضعوها على أبدانهم.

إن الرجل البدائى كان يأخذ العرى ببساطة وبراءة وخلوص نية.. ويتعرى كنوع من التكيف مع بيئته الاستوائية الحارة.. ولا يخطر على باله مسائل جنسية أو لذاذات حسية.. وهو فى الحقيقة أقل منا إفراطاً بكثير فى حياته الجنسية.. فهو لا يقرب زوجته إلا مرتين فى الشهر.. وهو لا يقربها أبداً وهى حامل.. وهو ينقطع عنها سنة.. وفى بعض القبائل سنتين بعد الولادة.. وهى أشياء أشبه بالصوم الجنسى.

ونحن عرفياً نغطى أعضاءنا التناسلية ومع ذلك نستخدم شفاهنا كأعضاء تناسلية وأكثر.

وتعدد الزوجات بين هذه القبائل لم يكن أبداً شاهداً على همجية الرجل.. فالمرأة فى هذه القبيلة لم تكن أبداً سجينة البيت قليلة الحيلة كما هى عندنا.. وإنما كانت دائماً عاملة.. كتفها بكتف الرجل فى كل مكان.. وحرة اقتصادياً مثله.. وفى الزندى تنفق المرأة على البيت لأنها هى التى تزرع الحقل وتجمع المحصول وتحمله إلى محطات التسليم وتأخذ ثمنه فى حين يتمدد الرجال معظم الوقت تحت ظلال أشجار المانجو يدخنون.

والزواج بأكثر من واحدة لا يتم برغم الزوجة ولكن برغبتها ومشورتها.. والزوجات فى العادة يتنافسن أيهن التى تجمع المهر قبل الأخرى لتقدمه إلى رجلها ليتزوج به زوجة جديدة.. لأن معنى زوجة جديدة.. أيدى جديدة تعمل معها فى الحقل.

تعدد الزوجات لم يكن علامة همجية.. وإنما وسيلة بقاء لقبائل ضعيفة مهددة بالفناء والانقراض تبحث بفطرتها عن نسل بأى طريقة وتبحث عن وسيلة للإكثار من الأيدى العاملة.. وهو بهذا المعنى فضيلة.. فضيلة حفظ النوع ذاتها.

والديانات البدائية لم تكن تخلو من إدراك لمعانى الربوبية.. وكان فيها تصور رحيمٌ ، لآخرة ترفرف فيها الأرواح سعيدة على ذرى الجبال لا عمل لها سوى استدرار الرحمات على الأرض.

والمجتمع البدائى كان يتبادل قيمة صادقة هى قيمة العمل. فأفراده يتقايضون ويتواهبون ويتبادلون الخدمات ولا يعرفون

الأجر.. فـالواحد منهم يعطى خدمـة مقابل خـدمة لا مقـابل عملة نقدية.. والملكية بينهم ملكية عـمل.. كل واحد لا يملك سوى عمله.. يعطى منه على قدر طاقته ويأخذ على قدر حاجته.. دون أن يعرف الاكتناز أو الادخار.. أو تكويم ما يملك فى رأس مال وثروة..

والضمـانات الوحيدة بينهم كـانت هى التعاون والتـماسك فى أسر وقبائل ذات تقاليد.

لا فردية.

لا أفراد يتركـون لحالهم يشحذون ويمـوتون جوعاً.. وإنما كل القبيلة تمسك بعضها بدستور صارم من الحقوق والواجبات.

والمصيـر الذى ينتظر الجمـيع بعد الموت.. هو صورة مـرحة.. لحياة روحية.. تمرح فيها الأرواح بين الينابيع والجداول وتشملها المغفرة من رب كريم.

ونتيـجة لهذه الحـياة المفـعمة بالبـراءة.. انتفى الشـعور بالهم والخوف من المستقبل.. وانتفى الحزن والقلق.

والنتـيجـة أنك لم تكن تجـد فى الغـابة الوجـوه النكدة المربدة بالهموم.. ولا الوجـوه الكشرة العكرة التى تراها فى المدينة.. وإنما كنت ترى وجوهاً ضاحكة بسامة فـياضة بالمرح ، وتشاهد حلقات يومـيـة من الرقص والغناء وترى الدعـابة والرقـة وحب الغـرباء وتلمس الطبيعة المسالمة..

مجتمع لم تكن تنقصه الأخلاق.. وإنما كان ينقصه العلم.

ومع ذلك فالعلم وما استحدثه من صناعة ومدنية.. لم يكن كله

خيراً على هذا المجتمع البدائى..

الصناعة أقبلت على ساكنى الغاب ومعها شرورها وتعقيداتها.. فقد تسلمته طفلاً إلهياً بسيطاً يعيش على الرقص والغناء ، ولا يطلب من الرزق أكثر من حاجته ولا يفهم من الملكية إلا ملكيته لعرق جبينه فعلمته الطمع والاكتناز والخوف والتأمين على الحياة فى الشركات وفتح الحسابات فى البنوك وتكويم الثروات والبحث عن ضمانات لهذه الثروات بتكويم ثروات أخرى بجانبها.. وعلمته الهم والحزن والقلق.. وعلمته الإحساس بوطأة الزمن الذى يأكل عمره.. وأخذت بيده إلى حياة أحسن.. ولكن فى نفس الوقت حياة أتعس.

إنه يتقدم.

لكنه يتقدم بثمن.

وليس لنا أن نشعر بالكثير من الغرور لأننا أعطيناه من علمنا.. فإننا أيضا قد سلبناه الكثير..

وقد دفع لنا ثمن هذه الخطوط من الكهرباء التى مددناها إلى أكواخه المظلمة.. من صميم نور قلبه.. ومن صميم براءة روحه.. ومن صميم سعادته.. وضحكاته.

الشيلوك

كانت الباخرة تسير ببطء.. كأنها سلحفاة تمشى على بطنها.. وأنا مغمى علىّ من فرط الحرارة فى علبة السردين التى أنام فيها.. والمروحة تزن على رأسى بلا جدوى.. ولا أجرؤ أن أفتح باباً أو شباكاً فأسراب البعوض تحوم فى أفواج كثيفة فى الخارج ولا أكاد أتخيل أن أخرج أصبعاً حتى لا تهجم عليه فى وحشية.

وكلها من بعوض الأنوفيل حامل الملاريا.

وكانت الملاريا قد بدأت تكتسح المركب فالريس ، حرارته ٤٠ واثنان من البحارة يعانيان رجفة الحمى.. وسائح هولندى يهذى فى غرفته منذ يومين.. وأقراص الكلوروكين والكاموكين منتشرة فى أفواه الركاب كالبومبون.

وكنت أفتح عينى بين لحظة وأخرى.. وأنا فى ضباب النوم.. فأرى جزائر من النور تسبح طائرة على جنبى السفينة..

هل أهذى أنا الآخر.

وأفرك عينى.. وأحملق حولى جيداً..

مازالت هناك تلك الجزائر من النور..

إنى لا أحلم..

إنها جزائر من نباتات الهياسنت سابحة فى التيار تضيئها أنوار الباخرة على الجانبين..

وكان قمر خط الاستواء يبدو شاحباً يغلفه الضباب والبخار وخطر لى أن أصعد على سطح الباخرة لأشاهد الطبيعة فى تلك الساعة من الليل..

ودهنت وجهى وأطرافى بطارد البعوض.. وخرجت ألتمس الهواء ولم يكن ثمة هواء.. وإنما رطوبة راكدة تتكثف على الأهداب وعلى الجلد.. وهواء ثقيل له ضغط.

ولم تكن الطبيعة نائمة كما تصورت.. وإنما كانت صاخبة جياشة بالحركة والحياة..

أسراب الفيلة تملأ المراعى.. وتماسيح النيل الضخمة تمرح حول الباخرة وقطعان سيد قشطة تستحم.. وآلاف الكروانات والبلابل والعصافير والنسور والطيور الملونة تحلق على ارتفاعات قليلة.. وجيوش الحباحب المضيئة تلمع كسنون الإبر فى الظلام..

وحرب الطبيعة ناشبة على أشدها.. الحباحب تأكل البعوض والضفدع يأكل الإثنين والأسماك تأكل الكل ثم يذهب الجميع فى جوف التمساح فى صمت على حين يطل القمر شاحباً يغلفه الضباب والبخار.

ومن وقت لآخر يرشق الهدهد منقاره فى الطين ليخرج بدودة كبيرة.. ويغطس طائر اللقلق فى الماء ليخرج وفى فمه سمكة.

وترتفع هامات السفانا العالية وأشجار البردى وسيقان

الهياسنث على الشطآن لتحجب ما يجرى فى الداخل.. لا يندو عنها صوت إلا حينما يتخللها ثعبان فيخشخش بين أوراقها وهو يسعى ليرد الماء.. أو يتمطأ فيل فتهوى كتل من هذه النباتات المتشابكة وتتفتت ويجرفها التيار فى جزائر عائمة صغيرة تنعكس عليها أضواء الباخرة فتلمع فى الظلمة.

كل صنوف الحياة كان يبدو عليها الانتعاش فى هذا الجو الساخن. فهى تتلاقح وتتوالد وتتكاثر وتأكل بعضها وتنقنق وتزقزق وتشقشق وتفح وتنبح وتعوى وتملأ المستنقعات اللزجة وتشرب مياهها الراكدة فى شهية كالحساء وتنمو وتبلغ أحجاماً عملاقة.

أشجار الإدليب كانت تصطف فى طوابير شاهقة الطول على الجانبين. وثمار الإدليب كانت تتساقط فى الماء.. كل ثمرة فى حجم البطيخة (وهى من فصيلة الدوم).. أشجار البردى كانت تنمو فى وحشية حتى تسد الأفق.

التماسيح كانت تشق الماء شهباء اللون.. كالحة ضخمة.. كالبوارج الحربية.

كات هذه البيئة الساخنة هى البيئة المختارة لهذه الفصائل من الحيوان والنبات.. شىء واحد لم يكن يظهر إلا نادراً فى هذه المتاهات الاستوائية الشاسعة.. هو الإنسان..

كل بضعة أميال كان يظهر واحد أو اثنان أو ثلاثة من الزنوج عراة.. يحملون الحراب.

وكلهم من قبيلة الشيلوك.

والشيلوك. والدنكا.. والنوير.. هى القبائل التى يلقاها المسافر فى هذه المنطقة من النيل بين كوستى وملكال وبور وجوبا.

وزنوج هذه القبائل يسيرون عرايا.

وأحياناً تجد الواحد منهم عرياناً « ملط » ولابس كرافته.

وهم ينظرون إلى المدنية بهذه الطريقة من التريقة فالثياب فى نظرهم مجرد تقليعة بلا وظائف.. مجرد زوائد لا معنى لها.. كزر الطربوش.

ومعظمنا كنا قد بدأنا نعتنق هذه الفلسفة.. فقد كنا نسير على سطح المركب أنصاف عرايا لا فرق بيننا وبين الشيلوك إلا نصف متر الدبلان الذى يقتضيه الحياء التقليدى..

ولكن الشيلوك لم يكونوا رواداً فى مسألة الثياب وحدها.. ولكنهم كانوا رواداً فى كل ما هو بدائى.. وكانوا يرفضون بشدة كل ما هو مدنية.. ويتمسكون بكبرياء بتقاليدهم.

ومن الدراسات التى قرأتها عن هذه القبيلة.. كان يبدو أنها قبيلة شديدة التدين.. شديدة التمسك بعباداتها وتقاليدها.

وديانة الشيلوك ديانة وحدانية.. فهم يؤمنون بإله واحد يسمونه « جوك » ولكن فهمهم لهذا الإله الواحد غامض ومضطرب فهو فى نظرهم خفى وموجود فى كل مكان وخالق للسماء وللأرض ولكن مشيئته لا تنفذ إلا عن طريق « نيا كانج ».

و«نياكانج» هو ملك الشيلوك القديم الذى أنشأ قبيلة الشيلوك . وهو فى اعتقادهم لم يمت وإنما تحول إلى ريح واختفى . ثم حلت فيه روح «جوك» .. وأصبح ممثلاً لمشيئته على الأرض .. ولهذا فهم يصلون له ويقيمون له المعابد ويقدمون له القرابين .

و«نياكانج» متصل اتصالا يوميا بحياة الشيلوك .. أما «جوك» أو الله فهو شيء مجرد وبعيد ومتصل أكثر بالكون كله .

ومعابد النيا كانج هى وحدات سكنية عادية يعتقد الشيلوك أن روح « النياكانج » تسكنها .. وتتألف الوحدة من خمسة أو ستة أكواخ مثل أكواخ السكن العادية التى يسكنها الشيلوك مع فارق أنها أكثر اتساعاً ونظافة ويقوم على خدمتها كهنة من عجائز الشيلوك ومعهم زوجاتهم الطاعنات فى السن .. ومحرم دخول هذه المعابد لأى فرد من أفراد الشعب فيما عدا هؤلاء الكهنة .. وعلى من يدخلها من النساء والرجال أن يكون صائماً صياماً تاماً عن الاتصال الجنسى .

والكوخ الأول من هذه الأكواخ يخصص لنزول روح «نياكانج»

وفيه توضع أسلحته وأدواته وقيثارته وطبوله وجلود قرابينه وعلى بابه تغرس قرون الأضاحى التى قدمت له .

والكوخ الثانى يخصص للماشية التى تخص المعبد .. والثالث لخزن الحبوب وتخمير المشروبات .. والرابع للكهنة والخدم والعبيد.. والخامس لتقضي فيه روح «نياكانج» حاجتها وتستحم وتتبول .. والسادس لتنزل فيه روح «نيكايا» والدة «نياكانج»

ويرتل الكهنة فى صلواتهم قائلين.

يا إلهنا.. نجنا.. بيدك وحدك نجاتنا.. أنت تملك السماء والأرض والنجوم.. وبمساعدة « نيا كانج » تقوى أذرعنا عند الحرب.. وتحفظ لنا ماشيتنا.. وتبعد عنا المرض والجوع.. كل أبقارنا مبذولة من أجلك.. وكل دمائنا فداؤك..

وهم يذبحون الثيران التى تقدم قرابين ويأكلون لحومها ويرمون بعظامها فى النهر.. أما الأبقار فيحفظونها فى حظيرة المواشى بالمعبد..

وأهم الطقوس الدينية طقوس المطر.. وطقوس الحصاد. وفى يوم الاحتفال بطقوس المطر تدق الطبول فى ساحة المعبد التى تكنس وتنظف للمناسبة ويجتمع الشباب للرقص بالحراب والسيوف وللغناء لروح « نيا كانج » ثم يؤتى بثور القربان ويضع الكاهن فى كفه بعضاً من ماء النهر ويبصق فيه ثم يرش به الثور ثم يطعنه طعنة نافذة فى أعلى الفخذ.. ويتركه ليدور فى الساحة حتى يخر ميتاً..

وهم يستبشرون إذا اتجه الثور المحتضر إلى النهر أو إلى كوخ « نيا كانج ». ويحتفظ الكهنة بالرأس والسيقان والأحشاء ليأكلوها.. ويلقون بالعظام فى النهر.

ويعتقد الشيلوك أن روح « نيا كانج » يمكن أن تحل فى عديد من الحيوانات مثل الزراف والثعبان والتمساح وطائر الأكاك.. وحينما يرى الشيلوكى فراشة تقف على باب المعبد يصرخ هاتفاً.. هذه روح « نيا كانج ».

وأى شجرة تنبت بالقرب من معبد « نيا كانج » تقدس ولا تمس ويعتقد أنها من أخشاب مقبرة « نيا كانج ».

وصيد التمساح محرم لأن الشائع أن روح « نيكايا » أم « نياكانج » تحل فيه وهم يعتقدون أن روح « نيكايا » تعيش فى الماء ولذلك يلقون بالشاة التى يقدمونها قرباناً لروحها وهى حية ومقيدة من أرجلها فى الماء.. وكل ملوك الشيلوك مقدسون على مثال « نيا كانج ». ولهذا فهم يدفنون وتقام لهم معابد على مثال معبد « نيا كانج » ولكن أصغر حجماً.

والموتى من الأجداد يعاملون معاملة الملوك ويعتقد أن فيهم روح

« جوك » وأنهم على اتصال بالله.

وأرواح الأجداد لا تنفصل فى ديانة الشيلوك عن أرواح الملوك أو روح « نيا كانــج » أو روح « جوك ».

ويتشاءم الشيلـوك من الملك الذى يطعن فى السن ويقعده المرض ويعتقدون أن ما يصيب الملك مــن مرض وشيخوخة لا يلبث أن يحل بالقبيلة كلها. وكانوا فى الماضى يقتلونه.

والقرابين البشــرية غير مألوفة عند الشيلوك ولكنهــا كانت تقدم فى أحوال نادرة حينما تفشل الطقوس العادية فى استدرار المطر.

وكـان المتبع أن يقـتل الضــحيـة وتدفن خـصيـته (وهى رمـز الإخصاب) فى مجرى مـاء .. وكان هذا القتل يتم فى سرية ويقوم به الطبيب الساحر.

والأطبـاء الســحرة نوعـان.. « أجـاجو » وهـم أحـبـاب الله الذين يسعون فى الخير وفى شفاء المرضى.. « والجالايات » وهـم محترفو السحر الأسود الذين يسحرون بالضرر والشر.

ومحترفات السحر الأسود من النساء اسمهن « الدايات ».

والساحـر الذى يبدأ الاشتغـال بالسحر ينفصل عن زوجـته ولا يجتـمع بها ويتـخلص مما يملك من أبقار ويعـيش فى وحدة وخلوة وتقشف.. وبالمثل المرأة « الداية » التى تشتغل بالسحر.

ويقال بلغة الشيلوك إن ما هو جسدى فى الساحر ينكمش ، وإن الروح تتلبسه وتنتشر فيه.

والشيلوك يؤمنون بالحسد والعين الشريرة.. والسحرة يعالجون الحسد بإحضار شــاة وفقء عينيها بقضبان محـمية من الحديد مع

تلاوة الأدعية والتعاويذ.. وتكون نتيجة هذه التعاويذ أن يصاب الحاسد بالعمى ويشفى المريض من الحسد.

ويعتقد الشيلوك فى أشباح وعفاريت بشرية غير طبيعية تسكن النهر والغابة ويعتقدون فى ثيران ليست لها آذان وليست لها قرون تعيش فى الدغل. ولكنهم لا يعلقون أهمية كبيرة على ذلك.

ويعيش ملوك الشيلوك فى أكواخ عادية لا تمتاز بشىء عن أكواخ الشعب.. وبنات الملوك لا يتزوجن إذ أن زواجهن من داخل العائلة الملكية محرم.. وزواجهن من خارج العائلة الملكية بالأشخاص العاديين لا يليق ببنات الملوك.. ولكن بإمكانهم أن يستمتعن بالحب مع من يشأن من الرجال بشرط ألا يحملن منهم..

وزوجة الملك تقدم الطعام لزوجها وهى راكعة على ركبتيها ووجهها ملتفت بعيداً عن الملك ويدها تغطى أسفل وجهها. وبعد أن يأكل تصب على يديه الماء.. وهى ما زالت تشيح بوجهها.

ومحرم على أى فرد أن يجلس فى حضرة الملك وهو ناظر إلى وجهه. على الجميع أن يشيحوا بوجوههم ويحجبونها بأيديهم.

وعلى مشايخ القبائل الذين يعينهم الملك أن يقسموا يمين الولاء بين يديه ثم يمسك كل منهم بحربة الملك ويقبلها ويلعقها بلسانه ويضغطها على جبهته ثم يلوح بها فى الهواء.. وعليه بعد هذا أن يبقى فى كوخه معتزلاً أربعة أيام كاملة يصبح بعدها الشيخ المختار من الله.

وجميع أطفال الشيلوك فيما عدا أطفال العائلة المالكة تنزع أسنانهم الأربعة الأمامية بالفك الأسفل.. وكل الأولاد تجرى لهم عملية « التشليخ » وهى قطوع عرضية مميزة فى الجبهة.

وبدون هاتين العمليتين لا يعتبر الواحد منهم قد أصبح رجلاً..

الدنكا

الدنكا أكثر قبائل الغابة تديناً.. وهم يعتبرون كل ظاهرة تحدث في الحياة اليومية حتى الظواهر التافهة إشارة إلهية تستدعي ذبح شاة وتقديم قربان..

ومما يروى أن أول طائرة أوربية نزلت في تونجي بين قبائل الدنكا أثارت حالة من الرعب كانت نتيجتها أن ذبحت أكثر من خمسين من الثيران وقدمت قرابين.. وتقدم رجل عجوز من الدنكا واعترف بجريمة قتل كان يخفي خبرها من سنين..

ومن الأمور العادية أن يلاحظ رجل من الدنكا وهو يقف في حديقته ثمرة كبيرة من ثمار المانجو.. أكبر من الحجم العادي. فيهلل ويكبر ويأتي بشاة ويدور بها عدة مرات حول شجرة المانجو وينتظر حتى تبول فيذبحها ويسكب دمها على الثمرة ويقطع أذنيها وأطرافها ويعلقها على سارية ويسلخها ويوزع لحمها على جيرانه ويقدم جلدها لكهنة « نيالاك ».

و « نيالاك » هو الرب الذي يعبده الدنكا وينظرون إليه باعتباره خالق الدنيا ومؤسس نظامها..

« ونيالاك » معناها الحرفى « الذى فى السماء ».. أو « الأعلى ».

والقوة الروحية الثانية التى يؤمنون بها هى « دنجديت ».. صانع الأمطار « ولدنجديت » قصة مثيرة..

فقد أنزله الله من السماء.. بعث بالأم المقدسة من سمواته فهبطت على قبيلة أديرو وبطنها حامل..

والتف حولها القرويون وذبحو الذبائح والقرابين فرحين مهللين.. وابتنوا لها كوخاً جميلاً..

وبعد شهر كانت تضع مولوداً ملائكياً له أسنان كأسنان الكبار ويبكى من عينيه دماً.

وقالت الأم المقدسة وهى تشير إلى طفلها.. سيكون هذا الطفل راعيكم.. وحامى دياركم..

وطلبت منهم أن يقدموا له الشياة والأبقار قرابين فقدموا لها ما طلبت فانشقت السماء عن أمطار غزيرة لم يشهدوا لها مثيلاً.

ومن ذلك اليوم أطلقوا على الطفل اسم « دنجديت » أى المطر الغزير.

وعاشوا تحت حكم « دنجديت » سنين طويلة حتى بلغ « دنجديت » سن الشيخوخة ثم اختفى فى عاصفة فلم يعثر له على أثر.

وفى بعض الحكايات أن « دنجديت » ما زال حياً.. وأنه خالد لا يموت وأنه ينتقل بين قبائل الدنكا متلبساً صورة بشرية..

وفى إحدى الأساطير أن « دنجديت » هذا اختلف مع زوجته

« أبوك » وأرسل عليها طائراً قطع حبل النجاة بين السماء والأرض.. ومن ذلك اليوم والسماء منفصلة عن الأرض.

« ولدنجديت » معابد كثيرة فى قرى الدنكا.

ومعبد « الدنجديت » وحدة سكنية عادية تتألف من ثلاثة أكواخ. أحدها مغلق دائماً وهو مسكن « الدنجديت ». ويقوم عليه اثنان من الكهنة هما الوحيدان اللذان يدخلانه.

وفى المعبد مجموعة من الحراب يقال إن « الدنجديت » نزل بها من السماء ويقال إن من يسرقها يموت أو تقطع يده.

وحينما يتقدم واحد من الدنكا بقربان إلى كاهن « الدنجديت » ويشكو من عقم زوجته مثلاً فإن الكاهن يمهله حتى يرى « الدنجديت » فى الحلم.. وهو فى العادة لا يقبل منه قرباناً حتى يأتيه « الدنجديت » فى الحلم ويعلنه بقبول القربان. وحينئذ يأذن الكاهن للدنكا بالمثول بقرابينه..

وبعد تقديم القربان يمسح الكاهن على رأس الزائر بمسحة من تراب المعبد ثم يدهن جسمه بالزيت المقدس. ثم يأخذ محتويات أمعاء الضحية وينثرها على المذبح.

وأحياناً يقدم الزائر هدية من التبغ مع القربان.

والدنكا يعتقدون أن كل إنسان له روح أو شبح يخرج منه بالموت ويتجول فى كل مكان ، وهو الذى يسبب الأحلام..

وحينما يحلم الواحد منهم بأن روح أبيه الميت جائعة فإنه يبادر حينما يتيقظ بوضع إناء فيه بعض الدقيق والزيت إلى جوار الباب

ليطعم الروح الهائمة..

وأرواح الأجداد ينظر إليها بتقديس وإجلال باعتبارها أرواح هادية منقذة..

وأنت ترى الدنكا حينما يقذف بسهمه فى الماء يصطاد يهتف قائلاً إيه يا روح أبى الهادية..

وأحياناً حينما يتعرض لخطر داهم يهتف منادياً على روح الطوطم الحيوانى الذى يقدسه.. إيه يا روح مارياك يا روح الثعبان المقدس.. قوى ذراعى..

والعظماء المختارون تلبسهم الروح العليا.. وتكون لهم القدرة على كشف الغيب وعلاج المرضى.. ويطلق عليهم اسم « تيت » ويذهب أفراد القبيلة لاستشارتهم..

والدنكا يؤمنون بأثر اللعنة والبركة..

والأب يبارك ولده بأن يبصق فى يده ويمسح البصاق على رأس ولده وعلى صدره ثم يأخذ من تراب الأرض ويحسوه عليه.

والأخ يلعن أخته ويقول لها فى ساعة غضب.. إذهبى لن يكون لك ولد.. ملعونة أنت وعاقر ما عشت فى هذه الدنيا.. وهى لعنة لا علاج لها إلا بأن يذبح شاة ويأخذ محتويات أمعائها ويبصق عليها ويدهن صدر أخته وبطنها وهو يقول.. اسمعى يا روح أجدادى.. لقد قلت ما قلته دون أن أعنيه.. وأنا الآن أتمنى أن يكون لأختى ولد جميل.. وأن تنجب ما تشتهى من الأطفال..

والدنكا يؤمنون بأن الإنسان يستطيع أن يضر غيره بمجرد أن

يشتهى هذا الضرر بجماع قلبه.. وأن الإرادة يمكن أن تقتل كما يقتل السيف بدون أن ينتقل صاحبها من مكانه..

وهم يؤمنون بالقسم..

ومن الأساليب المتبعة فى القسم أن يلعق الرجل مطرقة الحداد وهو يقسم قائلاً.. لأمت وأتحطم بهذه المطرقة إذا كنت أحنث فى قسمى.

وساحر الدنكا يدعى أحياناً أنه يستطيع أن يؤخر غروب الشمس.. وهو فى سبيله إلى ذلك يجمع روث الفيل ويضعه بين الأعشاب فى اتجاه الغرب كمحاولة لإيقاف الشمس وتأخير دورانها.

وصانع الأمطار شخصية هامة بين الدنكا.. وهو فى مقام شخصية الملك ولا يجب أن يموت موتاً طبيعياً حتى لا تحل لعنة الشيخوخة بالقبيلة..

وهو حينما يستشعر دنو أجله يطلب أن تحفر له حفرة عميقة ينام فيها على عنجريب من جلد بقرة وحوله المقربون من ذريته وأصحابه.. ويظل بلا طعام ٢٤ ساعة حتى يفتر تماماً فيهيل عليه أصحابه التراب حتى يختنق فيبادرون إلى دفنه.. وفى العادة يدفنون معه ثوراً أو بقرة.. ويصبون اللبن على قبره.

وطقوس المطر تبدأ فى نهاية الجفاف من كل عام..

وأحياناً يرفض صانع الأمطار القيام بالطقوس ويعتكف فى كوخه فيقوم كاهن آخر أقل منه مرتبة بالإشراف على الطقوس.. ويأخذ كوباً مثقوباً مليئاً بالماء « مثل الدش » ويعلقه على باب

الكوخ.. ثم يدخل وهو يغمغم. يا إلهى ها أنذا أحتمى من المطر فى داخل كوخى.. يا له من مطر غزير.. ويحدث فى حالات كثيرة أن تصدق السماء على كلامه فتمطر..

وكل طائفة من طوائف الدنكا لها حيوان تقدسه وتحرم صيده « طوطم » وتعتبر نفسها منحدرة من سلالته.. وأحياناً تقدس نباتاً.. أو ظاهرة طبيعية.

الأسد.. الثعبان.. والفيل.. والضبع.. والبومة.. والتمساح.. والثعلب.. والنار.. والسحاب.. والنهر.. والقوقع.. ونخيل البلح.. وأشجار البامبو.. كلها طواطم دنكاوية.

والدنكاوى الذى يقدس الثعبان حينما يلتقى بثعبان من الفصيلة التى يقدسها يرش على ظهره التراب ليطيب خاطره ولا يتعرض له بسوء.

والدنكاوى الذى يقدس الأسد يذبح خروفاً ويبعثر لحمه فى الغابة ليأكله الأسد .

والدنكاوى الذى يقدس الضبع يقدم الطعام للضباع كما يقدمه لأولاده.

وإذا قطع رجل الشجرة التى يقدسها فإنه يموت وإذا أحرق خشبها فإن دخانها يعمى عينيه.

وهناك حكاية خرافية تروى عن هذه الطوطمية..

فالدنكاوية الذين يعيشون فى خور آدار يحكون عن « أليك » الجميلة التى خرجت من زبد النهر.. وكيف أن القرويين الذين عثروا

عليها أخذوها فرحين إلى القرية.. وهناك تبخرت « أليك » وتحولت إلى ماء عند أول لمسة من يد رجل.

وحينما ذبح القرويون الذبائح وقدموا القرابين متوسلين إلى الجميلة « أليك » أن تعود.. سالت مياه « اليك » العطرية وعادت إلى النهر مع العجل الصغير فى موسم المطر قرباناً للجميلة « أليك ».

ومن يومها وهذه القبيلة الدنكاوية تلقى فى النهر بقرة حية مع عجلها الصغير فى موسم المطر قرباناً للجميلة « أليك ».

وفى قبيلة فاكور يحكون عن « فاكور » الذى خرج من الصخر. وكان يحلب العنزات ويشرب كل ما فى ضرعاتها من لبن حتى قبض عليه البطل « أيويل ».

وحاول « فاكور » الخلاص من قبضة « أيويل » فلم يستطع فتحول إلى سيد قشطة ثم إلى عصفور ثم إلى غزال ولكن البطل « أيويل » ظل ممسكاً به.

وانفجرت الصخرة التى خرج منها « فاكور » وكان لها دوى هائل هصور.. وقدم القرويون بقرة قرباناً للصخرة لإرضائها فابتلعتها الصخرة.. ونزل المطر مدراراً.. وابتسمت السماء.. وقبلت ما قدم القرويون من قرابين.

وما زالت السماء إلى الآن تسقط على الأرض هذه الصخور.. ولكنها الآن لا تزيد على حصوات صغيرة.

وبعض القبائل يعبدون الشهب والنيازك التى تتساقط على الأرض ويقدسونها كالطواطم.

والدنكا يطلقون على أطفالهم أسماء حسب المناسبات. فيسمى الواحد منهم ابنه « ألوت » أى رطب وبارد.. لأن ميلاده كان فى موسم الأمطار.

« أديو » أى الباكى.. لأن ميلاده صادف حدوث وفاة فى العائلة..

« كوينير » الذى لا يعرف خاله.. لأنه ولد فى أثناء خلاف بين أبيه وخاله.

وأسماء أخرى مثل « الكل يصلى » لأن ميلاده حدث بعد فترة طويلة من العقم.. وبعد أن اشتركت القرية كلها فى الصلاة من أجل ميلاد ابن.. وبعض الأسماء تكون أسماء أجداد أو أقرباء أعزاء أو حيوانات مقدسة.

والدنكا يطلقون الأسماء على مواشيهم كما يطلقونها على أولادهم ويعرفون كل بقرة باسمها.

وعلاقة الدنكاوى بثوره وبقرته أكثر من علاقة إنسان بحيوان. فهو يغنى لها.. ويحنو عليها.. ويناديها باسمها.. ويناجيها فى خلوته. ويبلغ من حبه لها أنه يؤثر موت أولاده فى موسم الجفاف جوعاً على أن يذبح لهم بقرة من بقراته.

وهو يفضل خلفة البنات لأن العرسان يمهروهن أبقاراً.

وعادة تشليخ الجبهة ونزع الأسنان الأربعة فى الفك السفلى متبعة فى الدنكا كما فى الشيلوك.. ولا يعتبر الدنكاوى رجلاً إلا بعد أن تشلخ جبهته وتنزع أسنانه.

والنساء يسرن حليقات الرءوس.. والرجال يصففون شعورهم

ويدهنونها بالصمغ وبول البقر.

والموتى يدفنون وفقاً لطقوس وتقاليد خاصة.. فالميت يوضع على جنبه الأيمن ويده اليمنى تحت صدغه وذراعاه وساقاه مثنيان مثل الجنين فى بطن أمه.. وتحفر له حفرة على باب الكوخ من الجهة اليمنى.. يدارى فيها ويغطى بجلد بقرة ثم يهال عليه التراب.. ويبقى أقاربه حول الحفرة أربعة أو خمسة أيام نائمين فى العراء.. وتحسو النسوة التراب على وجوههن ويندبن ويعولن.. ويذبح ثور ويقدم لروح الميت لترضيته حتى لا يأخذ معه بقية العائلة.. وتبنى بالقرب من الحفرة طابية من الطين يرشق فيها قرناً الضحية. وتوضع فى وسطها عصا تتدلى منها حبل البهيمة إشارة إلى أن القربان تم تقديمه.

ويمتنع أهل الميت خمسة أيام عن شرب اللبن. ويطلق النساء شعورهن ولا يحلقنها طوال هذه المدة.

النوير .. والبارى .. اللانجو .. البونجو .. الدوبى

النوير والدنكا أولاد عمومة واحدة. وهم مثل الدنكا يقدسون الأسد والتمساح والثعبان وشجرة الكاك والنهر.

والنويرى الذى يقدس النهر حينما ينزل إلى النهر ليعبره يلقى بحبة من الخرز فى الماء قائلاً للنهر. يا جدى العزيز. خذ هذه ودعنى أعبر فى سلام..

والنويرية التى تقدس النهر لا تعبره عارية وإنما لابد أن تلبس إزاراً حول نصفها الأسفل.

والنوير يؤمنون بالرب « كاوث ». وأطفاله ملائكة السماء. وكل ملاك له عندهم اختصاص.. ملاك للحرب.. وملاك للصيد. وملاك للزرع. وملاك للماشية. وملاك للأمطار.

والملائكة طيور. ولذلك يحرم النوير أكل لحم الطيور.

وحينما تحل روح الملائكة فى نويرى فإنه يصبح نبياً..

وأشهر أنبياء النوير هو « جن دنج » وقد بدأ حياته شيخ قبيلة « كورمون » ثم تلبسته الأرواح فترك أكواخ عشيرته وهام على

وجهه فى الغابة حيث اعتكف تحت شجرة لا يأكل. وبعد شهور من التأمل عاد إلى كوخه ليستمر فى الصيام.. وكان يقضى الأيام الطويلة يتحدث إلى نفسه.

ويحكى عنه أنه كانت له قوى روحية غير عادية. وأنه أوقف وباء الجدرى وطاعون البقر بصلواته وأدعياته وأنه كان يعالج العقيم والعاقر والمجذوم..

وقد بنى فى عهده هرم كبير قاعدته قطرها ٣٠٠ قدم وارتفاعه ٥٠ قدماً وحول قاعدته مجموعة هائلة من سنان العاج.

والنويرى يؤمن بآلهته وملائكته ويتأسى ويتصبر بإيمانه إذا أصابه مكروه. ويقول هذه إرادة « كاوث ».

وإذا ماتت له بقرة. يقول : كل ما أملك « لكاوث »..

وبعض النوير لا يأكلون البقرة التى تموت. يقول النويرى فى حزن كيف آكل لحم بقرتى العزيزة. وقد كنت أرقص حولها. وأشرب لبنها. وأدهن ظهرها بالتراب.

ولكن هناك من النوير من يقول : العين والقلب يبكيان. ولكن الأسنان تضحك والمعدة تشقشق فى سعادة. وهو لهذا يدع الحزن جانباً ويبادر إلى أكل بقرته التى تموت دون أن يتردد.

والنوير يحتفظون بحربة مقدسة فى كوخ ويضعون على حراستها كاهناً هو الوحيد الذى يلمسها أما الباقون فمحظور عليهم لمسها.

وإذا حدث ورآها أحدهم فلابد له من ذبح قربان.. وهم يعتقدون

أن هذه الحرية نزلت من السماء ويقيمون لها الطقوس والعبادات.

والاختلاط. والعرى.. هو العادة بين النوير. وفى حفلات الزواج ينام الأولاد والبنات معاً فى أكواخ واحدة. وهم لا ينظرون إلى البكارة باعتبارها مسألة ذات أهمية.. والاتصال الجنسى ليس فيه حرجاً طالما أن الولد والبنت لا تربطهما صلة دم. وطالما أنه لا يحدث حمل..

والبنت التى تحمل بدون زواج تقل فرصتها فى الزواج. وإذا وجدت زوجاً فإنها فى العادة تكون الزوجة الثانية له..

ولكن برغم هذه الحريات الممنوحة للبنات فإن البنت فى العادة لا تعطى نفسها بسهولة. وهى غالباً بحكم دلالها واعتزازها بجسمها وأنوثتها تحافظ على نفسها ولا تعطى جسمها إلا لزوجها..

والأرملة بعد وفاة زوجها تصبح من نصيب ابنه. أو أخيه. وفى إمكانها أن تتخذ عشيقاً وتعيش معه. ويكون الأطفال الناشئون منتسبين للميت..

والرجل الذى يموت أخوه دون أن يتزوج يصبح من واجبه أن يتزوج زوجتين واحدة له وواحدة لأخيه الميت.. وإذا مات له عدد من الإخوة فإن عليه أن يتزوج عدداً من الزوجات بعدد إخوته الذين لم يتزوجوا..

وتستطيع الزوجة أن تطلق زوجها بأن ترد له أبقاره التى دفعها مهراً وتعود إلى بيت أبيها.

والمهر يتراوح فى العادة بين عشر بقرات ومائة بقرة يستولى

على معظمها الأب والأخ والأكبر.

والنويرى لا يصبح رجلاً.. ولا أهلاً للزواج.. إلا بعد أن تجرى له عمليـة « تشليخ ».. وتنزع أسنانه الأربعة الأمامـية السفلى كـالعادة عند الدنكا والشيلوك..

وهم ينتزعـون أسنان أولادهم بسنارة سمك. بدون أى مـحاولة لتطهيرها أو تعقيمها..

وفى قـبائل « البـارى » نظام من نوع آخـر.. فهم يتـبعـون فى حيـاتهم سيـاسة طبـقيـة.. ينقسـمون إلى سـادة « لوى » وعبـيد «دوبى».

العبـيد يشتـغلون بالخدمة فى الأكـواخ وبطهى الطعام وقطع الأشـجـار ولـيـست لهم حـقـوق عند السـادة سـوى إيوائهم وإطعامهم.

والسـادة أنفسـهم ينقسـمون إلى طـبقـات. طبقـة الكهنة وعلى رأسهـم صانع المطر وهو رجل عـالى المقام تحل فـيه الروح العلـيا ويدفع له الجـميع ضـرائب سنوية.. ويليـه فى المكانة سيـد الأرض وهو المشـرف على البذر والحصـاد والرى والزراعة. وكـلا الاثنين لهما حاشية من السحرة ومحترفى التطبيب.

وهناك أيضاً شـيخ القبيلة وأعـيانها والأغـنياء.. ويلى هؤلاء فى المكانة أفـراد القبيلة العـاديون والصيـادون والحدادون وهم فـئات محتقرة..

والبارى يعـتقدون أن الطبيـعة يسيرها اثنان من الآلهـة. « جان

لوكى » وهو رب السماء. و « جان لوكاك » وهو رب الأرض.

والأول يرسل البرق والرعد والمطر ويبعث الحياة فى الطبيعة. والثانى يبعث المرض والموت والحرب. وعنده مستقر أرواح الموتى جميعهم. وهو كامن فى جذور الأشجار. وفى البذور الكامنة فى الأرض.

وهم يقدمون القرابين والذبائح للاثنين ولرب الأرض والموت أكثر لاسترضائه وتطييب خاطره.

وهم فى العادة عندما يموت لهم ميت يذبحون ثوراً أو بقرة أو عنزة. ويعلقون الحبل الذى كانت تساق به فى عصا ترشق إلى جوار الحفرة التى دفن بها الميت إعلاناً لرب الموت والدمار بأنهم قد ذبحوا له القربان حتى يتركهم فى حالهم.

والبارى يقدسون أرواح موتاهم ويعتقدون أنها يمكن أن تحل فى حيوانات عديدة، ولهذا فهم يقدسون الأسد والثعبان والتمساح مثل سائر القبائل. ويعتقدون أن الثعبان الأخضر الذى يظهر فى الغابة هو روح جدتهم فيقدمون له اللبن ليشرب. ويتبركون بشجرة التين ويدهنونها بالزبد واللبن ودم القربان فى المناسبات.

وفى نهاية موسم الجفاف تتجه جميع قبائل البارى إلى صانع المطر تحمل القرابين والذبائح وفى العادة تذبح بقرة سوداء وعنزة سوداء وتمسح بدمها وبدهنها الأشجار المقدسة. ثم يلجأ صانع المطر إلى كوخه. ويستخرج حجارة الأمطار وأغلبها حجارة من الكوارتز والزجاج ويغسلها بالماء ثم بزيت السمسم وهو يقرأ عليها

الأدعية والابتهالات وكلهـا نداءات إلى أرواح أجداده باستدرار المطر فإذا لم تنفع هذه الأدعيـة فإنه يذهب بنفسه ليـمارس هذه الطقوس على قـبور أجـداده.. فإذا لم تنزل الأمطار فـإنه يذبح ثوراً ويقـدمه قرباناً. ويمسك بخطاف حديد يحتـفظ به للمناسبة ويرفعه إلى فوق ثم يجذبه إلى تحت كأنه يشد شيئاً. وهو يقول إنه يشد السحاب إلى الناحية التى يريدها.

فإذا لم تنزل الأمطار بعد كل هذا. فإن القبائل الثائرة تقبض على صانع الأمطار وتقتله.

وطقوس الدفن تشـبه طقوس الدنكا. يرقـد الميت على باب الكوخ على اليـمين إذا كـان امرأة. وعـلى اليســار إذا كان رجـلاً. ويوضـع الجسد فى وضـع جنينى على الجنب الأيمن وعينه متطلعة إلى داخل الكوخ ثم يغطى بجلد بقـرة. وتملأ الحفـرة بالتراب. ويضــع أقارب الميت التراب عـلى رءوسهم. وترقص القبـيلة رقصــة الحرب وتذبح شاة وتقـدم قرباناً لـلمناسبــة، ثم تقام وليـمة يُذبح فـيهـا عددُ من الثيـران يتناسب مع ثروة الميت ويصل أحـياناً إلى مائـة ثور وتوقد النيران على أطراف القـرية وتشوى الذبائح ويأكل أفراد القـبيلة ثم تلقى الفـضلات فى النهـر، وتعلق قرون الذبائح على عـصى ترشق بجوار الحفرة التى دفن بها الميت.

وإذا كان الميت هو سلطان القبيلة فإنه يُترك فى الحفرة ثلاثة أيام يقدم لـه الطعام فيـها كل يوم حـتى يتعـفن وتنفجـر بطنه ثم يدفن ويهال عليه التراب.. وتدور حلقات الرقص حوله..

وفى الماضى كان أحد عبيد السلطان من « الدوبى » يُقتل ويُدفن بجواره..

وإذا كان الميت هو صانع المطر فإنهم يبادرون بإغلاق فتحات جسمه حتى لا تهرب الروح.. يسدون أنفه وفمه حتى فتحة الشرج يسدونها ، ثم يدفن كالعادة مع تقديم القرابين والرقص حوله..

وإذا مات صانع المطر مقتولاً نتيجة لعجزه عن استدرار المطر.. يلقى به فى الغابة إلى جوار النهر ويغطى وجهه بالطين وتفتح بطنه حتى تخرج روحه الشريرة التى يعتقد البارى أنها تحبس عنهم المطر..

• • •

وعلى الضفة الغربية للنيل فى الجنوب تعيش طوائف « الدوبى » وهم أكثر أهل الغابة بدائية. لا يعتمدون على زراعة ولا على رعى. وإنما يعتمدون على الغابة مباشرة. يتغذون على عيش الغراب وبعض أنواع الجذور. والفواكه. وعسل النحل. ويصطادون فيران الغابة ويأكلونها ولا يعرفون نظاماً. ولا يتجمعون فى قبيلة. ولا يتساكنون فى قرى. وإنما يهيمون على وجوههم كالحيوانات البرية يعيشون على ما يجدونه..

وهم أقرب أهل الغابة إلى صورة طرزان الحالية كما يتصورها المؤلفون وليست لهم حضارة.

وربما كان هذا هو السبب فى أن الواحد منهم حينما يعثر على مجتمع مثل البارى.. فإنه يعيش على خدمته. يأكل فضلاته دون أن يطلب لنفسه حقاً..

• • •

وفى قبائل « البـير » يؤمنون بإله اسمه « تومـو ». ويضعون له الطعام تحت الشجر حتى يأكل ويشبع.

وهم لا يدفنون موتاهم وإنما يلقون بهم فى العراء خارج القرى ويضعون إلى جانب الجثث أوانى الماء حتى يجد الوحش الذى ينهشها ما يبل ظمأه.

وفى هذه القبائل. الله اسمه «تومو».. والمطر أيضاً اسمه «تومو».

• • •

وفى قبائل « اللانجو » يؤمنون بإله اسمه « نايجوك ».

وإلى جوار كل كوخ يبنى اللانجو مزاراً لهذا الإله عبارة عن بضعة قوالب من الحجر مصفوفة فى دائرة صغيرة وعليها سقيفة أشبه بظليلة الكتاكيت. وهم يقدمون القرابين لهذا المزار ويسكبون دم الذبائح ومحتويات أمعائها بداخله.

وفى قبيلة « البونجو » حينما يفشل صانع المطر فى استدرار الأمطار بحجارة الكوارتز فإنه يخرج من كوخه مجموعة من الأبواق. ويأخذ هو وأتباعه فى النفخ فيها والهتاف أيها المطر. انزل.. أيها المطر انزل حالاً..

وهم فى طقوس الدفن. يضعون مجموعة من التماثيل الخشبية للحيوانات التى كان يصطادها الميت مع تماثيل أخرى آدمية. ويقيمون الولائم ويديرون أقداح الخمر ويرقصون ثم يأخذون فى اصطياد تماثيل الحيوانات بنبالهم..

والبونجو لا يهتم بخيانة زوجته إلا إذا رآها مع عشيقها فى حالة اتصال جنسى. وفى هذه الحالة يكتفى أن يضربها علقة. ويطالب عشيقها بتعويض..

وداع الغابة

كان الليل شديد الظلمة.

وكانت الحرائق التى أشعلها الزنوج لتطهير الأرض تبدو كمسارج زيت متناثرة تضىء الغابة.. وحلقة الراقصين التى تتوسط هذه الساحة الطبيعية الساحرة تموج بالحركة.. زنوج الزاندى الذين عادوا من الغابة بصيد سمين وشربوا المريسة يخاصرون رفيقاتهم ويهزون أردافهم ويدورون فى حلقات يرقصون فى نشوة ويغنون.

مى أبى مانجا نارى..

كو آجو دايارى

كوجو ووووه

والكهول الذين قعدت بهم الشيخوخة يكتفون بهز أكتافهم ورءوسهم مع الإيقاعات وأفواههم التى تكسرت أسنانها.. تضحك فى إشراق..

ووووه أينا جوجو

إينا كومبا

زابو زابو

أيو إيمى بيبى ووووه

طفولة الإنسانية الحلوة.. كنت أراها حولى.

الطفولة بكل بـراءتها وخطاياها.. ومرحـها.. وانطلاقهـا النشوان كانـت ترقص على نقرات أشـجار « التـيك » المجوفـة.. لا يستـرها شىء.. لم يكن عند واحد من هؤلاء الأطفال الكبار شىء يخفيه.. كل منهم كان يغنـى من أحشائه.. وكـان يعطى نفسه كلهـا اللحظة التى يعيشها.

لا افـتعـال.. لا خجـل.. لا تمثيل.. لا غـرض من وراء أى شـىء.. وإنما الكل يرقص لأنه فرحان. لأنه يعيش بجماع قلبه.

وشعرت بالدمـاء تدب فى أوصالى الباردة.. وشعـرت بطفولتى الدفينة تحت ركـام ثلاثين عامـاً من كابوس المدينة.. تطل برأســها.. وتتمطأ. وتنبـثق من تحت الردم.. وتسرى فى جـسدى كســيال من الكهرباء..

وشــعرت بنفـسى أقوم.. وأهتـز.. وأرقص.. كمـا لم أرقص فى حياتى كطفل مولود تهدهده أمه.. الطبيعة.

همج.. نعم.. ولكن ما أحوجنا إلى الكثير من براءة هؤلاء الهمج.

وحوش..

آكلو لحوم البشر..

نعم..

جد هذا الزنجى العجوز الذى يهز كتفيه أكل ذراعاً بشرية فى الأيام الخوالى. ربما.. ولكن ماذا فعلنا نحن بالقنبلة الذرية فى عصر النور والمعرفة والحضارة..

كم أكلت هذه القنبلة من أذرع وسيقان. وكم هشمت. وكم نهشت من وجوه جميلة فى هيروشيما.

كانت ترقص على نقرات أشجار « التيك » المجوفة.. لا يسترها شىء.. الأخيرة ؟!!!. سبعة ملايين : أكثر من سبعة ملايين.

ووووه آنى نامانجا أبايى

رى وينى أندو أنى مانجايى

ووووه

الزنجى العجوز يهز كتفيه ويقهقه فى مرح من حسن الحظ إنه لا يستطيع أن يقرأ ما يدور بخلدى.. وإلا لأغمى عليه من الرعب.

وحوش.. همج.. برابرة.. يؤمنون بالخرافات..

وبماذا يؤمن الأوروبى المتمدن.. بصنم اسمه الدولار.

ووووه أينا جوجو

أينا كومبا

زابو زابو

أيو إيمى بيبى ووووه

كنت أشعر بدوار غريب مسكر

كنت أشعر أنى عدت إلى أصلى.. إلى أهلى.. إلى حضن عائلتى.. بعد قرون غريبة عشتها طوافاً.. متغرباً.. بين غرباء لا أعرفهم.

ومن حولى آلهة الأساطير.. جوك. ونايجوك. وما رياك. ومبولى.. وجان لوكى.. وجان لوكاك. وكاوث. ودنجديت. وتومو.

ومن حولى الناس أرحم.. وأكثر إنسانية من ناس المدينة.

وحضن الطبيعة أكثر دفئاً.. وأكثر خصباً.

وصدر الأرض رطيب.. مبلل بالأمطار.. مخضل بالندى.. ضرعه لا يجف.. ولا ينضب منه الحليب.

لماذا يهدنا التعب والكلال فى المدن.. كل المدن.

كم تمنيت أن أستلقى على هذا الصدر وأنام.

لماذا يهدنا التعب والكلال فى المدن.. كل المدن.

فى القاهرة. فى لندن. فى موسكو. فى باريس. فى كل المدن.. الناس مهمومون. شاحبون. يسيرون بخطى مثقلات كأنهم على سفر شاق لا ينتهى.

فى الخرطوم سمعت الشاعر الفيتورى فى آخر قصائده يقول :

بعض معانينا العذاب يخفيها

يمتصها حتى يلاشيها

يبنى ستاراً حولها قاتماً

تلمسه الروح فيدميها.

• • •

بعض معانينا حياة تموت

يموت فيها الفرح

يموت حتى الحنين

ونحن نجثو حولها خاشعين

• • •

بعض معانينا خطى مثقلات

بالحقد والنقمة

ملوية الأعناق مستكبرات

لا تعرف الرحمة

لأنها تخوض فى الظلمة

إنهم فى الخرطوم أيضا يتعثرون فى القلق والنقمة والظلمة.. ويسيرون بخطى مثقلات. مهمومون شاحبون.

ووووه أينا جوجو

أينا كومبا

زابو زابو

أيوا ايمى بيبى ووووه

لماذا لا نعرف مثل هذا المرح الطليق عندنا فى المدن. لماذا لا نرقص هكذا من أحشائنا.

إن عندنا كل أدوات المرح والرقص.

عندنا سينمات ومسارح وأوركسترات.

عندنا مضحكون محترفون يسهرون على إضحاكنا.

عندنا إذاعة وتليفزيون.

عندنا أراجوز.

عندنا كتب.

عندنا كهرباء نهزم بها الظلام.

عندنا ماء في الحنفيات. لا حاجة لنا لأن ننتظر من يصنع لنا الأمطار.

عندنا ألف صنف وصنف من الحلوى. والمخللات والمشهيات.

عندنا أفخر الملابس والثياب.

عندنا أجمل نساء. وأشهى نساء.

عندنا أموال في البنوك.

لماذا كل أغانينا حزينة. لماذا وجوهنا شاحبة. لماذا قلوبنا مريضة.

لماذا أرواحنا متعبة. لماذا نشعر بأننا مذنبون.. لماذا نقتل بعضنا البعض.

أهو انتقامنا من أنفسنا.

أهي المعرفة التي جلبت لنا الحزن.

أم هي القوة التي وضعها العلم في أيدينا.. هي التي ضاعفت التناقض الذي نعيش فيه كبشر أقوياء قادرين. وفانين عاجزين في نفس الوقت.

هل هى القـنبلة والذرة. وزجـاجــة الدواء. وكل خـبــرات العلم وشرروره هى التى أثقـلت كواهلنا بالمسئـولية كحـملة وورارثين لكل هذه الأسلحة المخربة والنافعة.

أم هموم المسئولية.

أم هو الزهد اليائس الذى صبغ أمامنا كل شىء بصـبغة الأشياء الزائلة. وجـعل من كل المسرات والأفـراح باطل الأباطيل. الكل باطل وقبض الريح

أهى ترنيمة الإنجيل.. طوبى للحزانى

أم هو الفن.. أم العلم.. أم الـثلاثة مـجـتمـعـون صنعـوا لنا هذه الحضارة الحزينة.

لا أدرى..

ولكنى أعلم أننا نعـيش فى المدن.. حزانى.. مـهمـومين قلقـين.. معذبين :

ووووه أينا جوجو

أينا كومبا

زابو زابو..

أيو إيمى بيبى ووووه..

لا عهد لنا بمثل هذا المرح الطليق أبداً..

الزنجى العجوز ما زال يهز كتفيه ويضحك. رجله مقطوعة. أكلها أسد.. ولكن مـاذا يهم.. إنه يرقص بكتفـيه.. ويهز رأســه مع النغم ، ويضحك..

الله يمنح أطفاله البسطاء الفرح.. هذا سره..

إننا نقول عنهم إنهم بدائيون متخلفون.. ولكن الله يضفى عليهم من الفرح والمسرة ما يضفيه على أحبابه.

فى لقاء عارض مع طبيب من أطباء الجنوب وجدت عنده أكداساً مكدسة من الأدوية والعقاقير.. ما زالت فى صناديقها.. لم تفتح.. وقال الطبيب.. إنها أدوية السكر والقلب والضغط والذبحة وتصلب الشرايين.. وهى أمراض لا تعرف طريقها إلى الغابة.. وكل أدويتها ترد بحالها دون أن يصرف منها قرص..

الفرح يحصن الزنوج من هذه الأمراض التى لا تصيب إلا سكان المدن..

ووووه أينا جوجو.

أينا كومبا

زابو زابوو

أيو يمى بيبى ووووه

ونظرت إلى ساعتى.. كان الليل قد انتصف.. وكان علىّ أن أحزم حقائبى استعداداً للعودة.. لألحق بالطائرة التى تقوم فى الثالثة بعد منتصف الليل..

وألقيت على الغابة التى أحببتها نظرة وداع..

وكانت الحرائق التى أشعلها الزنوج لتطهير الأرض.. مازالت تشتعل كمسارج الزيت.. وتضىء الطريق..

وكان الرقص مازال على أشده..

ونظرت إلى السماء.. كانت قاتمة هائلة تبرق فيها النجوم.. كملاءة سوداء فيها ملايين الخروق..

الفهرست

صفحة

هذا الكتاب (مقدمة) ــــــــ ٥
الطريق إلى الغابة ــــــــ ٧
الماو .. ماو ــــــــ ٢٧
السودان ــــــــ ٦١
النيام نيام ــــــــ ٧٣
الشيلوك ــــــــ ٩٧
الدنكا ــــــــ ١٠٥
النوير .. البارى .. اللانجو .. البونجو .. الدوبى ــــــــ ١١٥
وداع الغابة ــــــــ ١٢٥